العلماء والصالحون في الدُفَّار
الكسب والعطاء

احمد إبراهيم أبوشوك

Dr.Binibrahim Al-Abbasi

العلماء والصالحون في الدُفَّار:
الكسب والعطاء

أحمد إبراهيم أبوشوك،
جامعة قطر

مقدمة

الدُفَّار من الأسماء المجهولة المعنى من الناحية اللغوية[1]، ومملكتها من الكينونات السياسية ذات الحدود الجغرافية المبهمة نسبياً، كما أنَّ الروايات التاريخية المتداولة عن تاريخ نشأتها وتطورها واضمحلالها شحيحة ومضطربة. فالشيخ محمد علي العجيمي (ت. 1952م)[2] يرى أن أصل الدُفَّار مُشتق من "الدِفْرَة"، العشب الذي كان ينمو بكثافة في المنطقة قبل مجيء العرب إليها في عهد الخليفة العباسي المهدي بن أبي جعفر المنصور (158-169هـ/775-786م)، حيث وجدوا "الدُفَّار ... متسعة قابلة للسكنى، مملوءة بقش الدِفْرَة"،

---

(1) الراجح أن أصل الاسم نوبي، وذلك علماً بأن معظم أسماء القرى والجزر المجاورة، كانت نوبية، مثل جقرناري، وحسينارتي، ومنصوركتي، وفقيرنكي، والعفاض، وأرتموقة، كما أن الدراسات الآثارية اثبتت أن قرية الدُفَّار كانت موجودة في المنطقة قبل مجيء العرب والإسلام إليها. لكن الشيء المثير للجدل أنه لا يوجد تفسير جامع مانع لمعنى الدُفَّار في اللغة العربية أو النوبية، بخلاف التخمينات الشفوية المتداولة بين الناس، والتي لا تقوم على أساس بحث لغوي أو علمي جاد.

(2) هو الشيخ محمد بن علي بن محمد بن أحمد العجيمي، ولُد بالبرصة عام 1881م، وحفظ القرآن على الشيخ عبد الرحيم محمد كرار بالمقل، ودرس العلوم الدينية على الفقيه محمد حاج نصر، ثم انتقل إلى خلوة الشيخ أحمد وديدي بقرية البكري، ومنها إلى مجلس الشيخ محمد البدوي بأمدرمان، وحسب رواية محمد عبد الرحيم التقى برجل صالح يدعى زين العابدين المغربي الفاسي، فأخذ منه الاسم المفرد". ثم عاد إلى مسقط رأسه بالبرصة، حيث شيد مسجداً وخلوةً لتدريس القرآن والعلوم الدينية، واستجلب لها العلماء، فشدَّ طلبة العلم رحالهم إليها، ثم بعد ذلك أصبح له مريدون وحيران، وطريقة صوفية تُعرف بالعجيمية. توفي الشيخ محمد علي العجيمي عام 1952م، وخلفه على سجادة الطريقة ابنه نور الدائم. وللشيخ محمد علي العجيمي ثلة من المؤلفات النفيسة، ونذكر منها: "طريقة كل مسلم وسالك"، و"كامل الأنوار في سيرة النبي المختار"، و"جواهر الأصول في ذكر أهل بيت الرسول" في الأنساب. ويقال إنَّه اهتمَّ بتعليم المرأة؛ لأنه كان يرى في تعليمها أساساً لقيام الأسرة الصالحة. وانتشر نفوذه وتعاليمه في المنطقة على حساب الطريقة الختمية؛ لذلك كان يشاع في أوساط الختمية بعض الأقوال السالبة عن الشيخ محمد علي العجيمي، وطريقته العجيمية. وفي هذا يقول محمد عبد الرحيم، الذي زار الشيخ العجيمي قبل وفاته: "وصارت له نفقات عظيمة، زانها بالانكسار، والتواضع، فطار صيته، واشتهر بكرم عجيب، وهناك انبرى لمحاربته جماعة من السذج، مدفوعين بعوامل الحسد؛ فأخذوا يخلقون له المثالب، ويرمونه بالكبائر، مثال ذلك يقولون عنه زوراً وبهتاناً أنه يجمع بين الرجال والنساء، ثم يقول: "أطفؤوا النور، وضموا الصدور، والذنب مغفور"؛ وأنه يريد تحويل القبلة إلى داره بكلام مسجع هو: "عليكم بكعبة التداني بدلاً عن كعبة المباني"، وغير ذلك من الترهات، وغرائب الخزعبلات، وصارت لاتباعه مشاكل ومضاربات مع أولئك المناوئين له والمنفرين عنه." لمزيد من التفصيل انظر، محمد عبد الرحيم **مخطوط أبطال السُودان**، مجموعة محمد عبد الرحيم، دار الوثائق القومية بالخرطوم؛ عون الشريف قاسم، **موسوعة القبائل والأنساب في السُودان**، ج 4، الخرطوم: شركة آفروقراف للطباعة والتغليف، 1996م، 1530-1531.

الذي سُمَّيت عليه،". ثم سكنوها وعمروها عمارة كاملة."[3] بَيْدَ أن هذا الافتراض محل جدل من الناحية التاريخية؛ لأن نشأة الممالك المسلمة في السودان كانت لاحقةً لذلك التاريخ، ومن الناحية الجغرافية أنَّ قرية الدُفَّار لم تُوصف بكثافة عشب الدفرة كما وصفها الشيخ العجيمي، بل وُصفت بأنها أُنشئت على هضبة صخرية، تُشبه قلاع ومقار الحُكَّام التي أُسست على ضفاف النيل آنذاك. ولذلك وصوفها الرحالة الفرنسي فردريك كايو الذي زار المنطقة عام 1821م بأنها:

"قرية مُهدمة، تقع على بعد خمسين خطوة من النيل، وتقوم على صخرةٍ مرتفعةٍ. وهذه القرية بُنيت معظم بيوتها من الحجارة الصلبة، المقطوعة من الجبل. وكانت قرية حصينة، يوجد جزء من سور يحيط بها، وبعض من بقايا الأبراج الدائرية المثبتة على فتحات في ذلك السور من كل جانب. وجدتُ بين هذه الأنقاض عموداً صغيراً من الجرانيت، يرقد على الأرض، وطوله ثلاثة أمتار، وتاجه لم يكتمل بعد، ومزخرف بالصليب الإغريقي. توجد داخل هذه القلعة بئر نصفها داخل الحجر الرملي، والنصف الآخر، مبني طوله متران، وعرضه أربعة أمتار، وعمقها ثمانية عشر متراً، وهي من أعمال القدماء، الذين شيدوها على هذه الصخرة قبل مجيء المسلمين."[4]

أما الدكتور أمين شعيب الحاج فقد أرجع اشتقاق الاسم إلى الدور الوظيفي لعلماء مملكة الدُفَّار؛ بحجة أنهم "كانوا يدفرون الجهل بالعلم"[5]، لكن هذا الزعم يبدو أنه اسقاط لاحق؛ لأن الدُفَّار لم تُعرف بأنها كانت مركز علم قبل مجيء الشيخ عبد الرحمن بن جابر الركابي إليها في القرن السادس عشر الميلادي، أي بمعنى أن الحدس التاريخي السليم يُرجِّح أنَّ إطلاق الاسم كان سابقاً لدور علماء الدُفَّار الوظيفي. ويؤكد ذلك قول نعوم شقير: "بأنها تقع على الضفة اليمنى للنيل، [...] ويزعم أهل دنقلا أنها بلدة نمرود ابن كنعان، وأنَّ الملك موسى سكنها بعد الإسلام، وأسس فيها مملكة دامت قبل الفتح المصري، فخربها الشايقية. [...] وهي الآن

---

(3) محمد علي العجيمي، **المولد المسمى بكامل الأنوار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وسلم**، 3 ط، الخرطوم: مطبعة التمدن، 1993م، 82. يضم هذا الكتاب مخطوطين للشيخ العجيمي أحدهما المولد و**المسمى بكامل الأنوار**، والآخر **جواهر الأصول** في ذكر آل بيت الرسول. ولذلك سنرجع إلى هذا الكتاب فيما باسم **جواهر الأصول**؛ لأن الجزء الذي يهمنا في هذا البحث.

(4) فردريك كايو، **رحلة إلى مروي والنيل الأبيض وما وراء فازوغلي وسط مملكة سنار وإلى سيوه وفي خمس واحات أخرى في السنوات: 1819م، 1820م، 1821م، 1822م** (ترجمه من الفرنسية فضل الله إسماعيل علي)، الخرطوم: جامعة السودان المفتوحة، 2012م، 22.

(5) أمين شعيب الحاج، "لمحة تاريخية عن مملكة الدُفَّار الإسلامية"، **موسوعة سودابيك**، يونيو 2017م، http://www.sudapedia.sd/ar/content/268، تاريخ الاستشارة، 4 سبتمبر 2017م.

بها قلعة خربة، قائمة على صخرة كبيرة. وبقربها جزيرة عامرة، تُسمى قانتي [أي قنتي]، يسكنها ذرية ملوك الدُفَّار مع الشايقية، وفيها آثار قديمة، جامعان ومسجدان."[6]

وعبارة "ملوك الدُفَّار"، و"ضنقلة الدُفَّار"، و"جعل الدُفَّار" من العبارات الشائعة الاستخدام في طبقات ود ضيف الله، وكذلك في مخطوط خلاصة الاقتباس لمؤلفه أحمد بن إسماعيل الأزهري؛ إلا أن عبارة "جعل الدُفَّار" تحدث تشويشاً في ذهن القارئ؛ لأنها تحمل بعض المضامين "السيادية" التي تميز جعل الدُفَّار عن بقية البديرية، بدليل أن الأزهري يفترض أن "مَنْ يدعي أنه من جعل الدُفَّار، إذا كان عدَّه لم يتصل بصلاح، فإن نسبته غير صحيحة؛ لأن صلاحاً هو جد جعل الدُفَّار، أولاده سبعة، وأبوه هو موسى الكبير، الشهير بمسوا."[7] وبموجب ذلك، يحاول الأزهري أن يعطي إشارة إلى أن نشأة مملكة الدفار تبدأ بالملك صلاح بن موسى الكبير؛ لكن هذا الافتراض محل جدل؛ لأن معظم المصادر التاريخية تميل إلى إرجاع نشأة مملكة الدُفَّار إلى أسلاف البديرية الأُول، ويعنى هذا الميل أو الترجيح إن مملكة الدفار كانت بمثابة المملكة الجامعة لكل البديرية، وبعد نشأتها، نشأت ممالك أقل حجماً منها في أبكر، وتنقسي والخندق. والرأي الراجح أنَّ هذه الممالك الصغيرة كانت تابعة لمملكة الدُفَّار، ولكن في المرحلة الأخيرة من عمر السلطنة السنارية حصلت على استقلال نسبي، وتحديداً مملكة الخندق التي كانت تبعد قليلاً عن غارات الشايقية العسكرية في المنطقة. ويثير اشتراط الأزهري مشكلة أخرى؛ لأنه يضيّق الدائرة النسبية والجغرافية للمملكة الدُفَّار؛ لأنه ينفي نسبة علماء بارزين في المنطقة إلى جعل الدُفَّار، أمثال الشيخ محمد بن عيسى بن صالح البديري، الملقب بسوار الذهب، الذي تفصح شجرة نسبه بأنه "الشيخ محمد سوار الدهب بن الشيخ عيسى بن صالح بن حسن حلالي بن دهمش بن علوان بن عبد الدافع بن عبد الخالق بن عبد الباقي بن موسى بن إدريس بن محمد البديري."[8]

---

(6) نعوم شقير، **جغرافية وتاريخ السودان**، ط2، بيروت: دار الثقافة، 1967م، 102. وفي موطن آخر يقول شقير: "مملكة الدُفَّار قامت في حلة الدُفَّار المار ذكرها، ودامت إلى ما قبل الفتح المصري بقليل، إذ خربها الشايقية، وطردوا أهلها منها إلى جزيرة قانتي، حيث لا يزال ذريتهم إلى اليوم. وفي الدُفَّار آثار قلعة قديمة وكنيسة من بقايا نصارى النوبة.

(7) أحمد بن إسماعيل الولي (الأزهري)، **خلاصة الاقتباس في اتصال نسبنا بالعباس**، (مخطوط)، 1853م، دار الوثائق القومية بالخرطوم، منوعات، 175/15/1، ص: 11-12. وأحمد بن إسماعيل الأزهري (1810-1882م)، هو الابن الثاني للسيد إسماعيل الولي، ولد بالأبيض وأكمل دراسات الإسلامية في الأزهر، حيث قضى به نحو اثني عشر عاماً (1861-1873م)، طالباً أولاً ثم مدرساً ممتازاً. وبعدها عاد إلى السودان عن طريق الفاشر، وحاول السلطان إبراهيم قرض بقاءه في الفاشر للتدريس، لكنه آثر العودة إلى الأبيض، وواصل التدريس في خلوة والده. وبعد اندلاع الثورة المهدية سافر إلى الخرطوم، وفي أثناء إقامته في الخرطوم ألف رسالة في التشكيك في مهدية محمد أحمد بن عبد الله عنوانها: "النصيحة العامة لأهل السودان عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الإمام. وبعد الترويج لهذه الرسالة، عينه الحكمدار محمد رءوف قاضياً لمديرتي غرب السودان (كردفان ودارفور)، ولكن قبل أن يصل مقر عمله بالأبيض قتله أنصار المهدي ضمن مجموعة عسكرية مناصرة للحكومة التركية عام 1882م. لمزيد من التفصيل انظر، محمد إبراهيم أبوسليم، **الخصومة في المهدية: كتاب في تاريخ فكرة المهدية إسلامياً وسودانياً**، الخرطوم: مركز أبوسليم للدراسات، 2004م، 272-273.

(8) عون الشريق قاسم، **موسوعة القبائل والأنساب السودانية**، ج 3، 1157.

تقودنا هذه الملحوظات إلى افتراض جوهري، مفاده أنَّ حدود مملكة الدُقَّار والممالك التابعة لها كانت تتطابق مع حدود دار البديرية التي تمتدّ من حلتي التيتي والصحابة شمالاً إلى جبل الضيقة (داقر) جنوباً في الفترة الأخيرة من العهد السناري، وأن مملكة الخندق قد حظيت باستقلال نسبي، وخرجت عن دائرة نفوذ الدُقَّار المباشر، علماً بأنها من الممالك التي كانت تُحكم بوساطة البديرية. وفي إطار هذه الفرضية تركز هذه المقاربة على الكسب المعرفي الذي حققه العلماء والصالحون في دار البديرية (أو مملكة الدفار) التي أشرنا إلى حدودها الجغرافية أعلاه، وعلى إسهامهم في خلق بيئة تعليمية حاضنة للدارسين الذين نهلوا العلم في ربوعها، أو هاجروا منها إلى بقاع أخرى من السودان؛ ليشتركوا في تثقيف الوعي الديني والمعرفي الذي انتظم فضاءات السلطنة السنارية. ولمعالجة هذه المشكلة، نسترشد بحزمة من الأسئلة التي ربما تفيد الباحث في جمع المعلومات التاريخيَّة المكونة لمفردات البحث، وتصنيفها، وتحليلها، ثم إعادة تركيبها حسب سياقاتها الاجتماعية والثقافية والسياسية؛ لتعطينا سردية تاريخية متماسكة، يمكن أن توضَّح معالم الحاضنة الاجتماعية التي شكلت منطلقات الكسب الثقافي-الديني في المنطقة، وتجليات العطاء الناتج منه في فضاءات سنارية أخرى:

- ما التركيبة الديمغرافية لسكان مملكة الدفار (أو دار البديرية) في إطار الحدود الجغرافية المقترحة أعلاه؟
- ما طبيعة الحاضنة الاجتماعيَّة-الثقافيَّة التي أسهمت في ظهور نخبة من العلماء والصالحين في دار البديرية؟
- كيف أثر أولئك العلماء والصالحون في بنية العقل المحلي؟
- ما الأثر الخارجي الذي حققه علماء وصلحاء دار البديرية، أو الطلبة الذين درسوا في ربوعها، ثم هاجر إلى أوطانهم حملة للواء العلم والمعرفة؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة في إطار هذا المقاربة التاريخية، نحاول أن نلقي ضوء على مصادر تاريخ دار البديرية؛ لأنها شحيحة وتتسم بالاضطراب والغموض، الأمر الذي يجعل عملية جمع المعلومات الواردة فيها وإعادة تركيبها في غاية الصعوبة، وكذلك عملية تقييم المرويات الشفوية المتعلقة بالأنساب، ودور الأعلام في الحراك السياسي والثقافي والاجتماعي، وذلك نسبةً لغياب النص المرجعي المكتوب والضابط لحركة التاريخ في الدار المعنية في البحث.

مصادر تاريخ دار البديرية: الندرة والاضطراب

لا يوجد تاريخ موثق عن دار البديرية وممالكها في شمال السودان التي نشأت في العصر السناري، وكيف تطورت، وكيف اضمحلت، بل الذي يوجد عبارة عن معلومات متناثرة عن تاريخ أعلامها في ثنايا بعض وثائق التمليك السنارية، ومخطوطات الأنساب، وتراجم الأعلام، وكتب الرحالة والإداريين الأوروبيين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها، فضلاً عن المرويات الشفوية المتداولة بين الناس، والتي تتسم بالاضطراب في كثير من جوانبها المختلفة. ومن أهم وثائق تمليك الأرض التي عرضت طرفاً من علاقة ممالك البديرية بحاضرة دولة الفونج في سنار، هي الوثيقة التي أقرَّ فيها السلطان بادي بن نول في العام 1157هـ/1744م مِلكيَّة الفقيه عبد الهادي ولد محمد ولد عبد الهادي ولد دوليب الركابي على زريبة جدَّه ود دوليب في دبة الفقراء، والتي سنعرض محتوياتها ونحللها في موضع آخر من هذه الورقة.

أما مخطوطات الأنساب فقد وثَّقت لأنساب بعض القبائل والأسر التي سكنت دار البديرية، رابطةً أصولها بالعباس بن عبد المطلب، أو غيره من الصحابة الذين ارتبطت أسماؤهم بأنساب أهل السودان. لكن هذه المخطوطات النسبية إذا نظرنا فيها بإمعانٍ، نلحظ أنها لا تنشد التوثيق الشامل القائم على صلات القرابة الحقيقية؛ بدليل أنها تكتفي بذكر الآباء دون الأمهات، متجاهلةً دور المجموعات المحلية التي أسهمت في تشكيل البنية الديمغرافية في المنطقة؛ ولذلك نتفق مع البروفيسور يوسف فضل حسن بأن أشجار الأنساب في جوهرها أميل إلى التمييز الثقافي دون العرقي؛ لأنها تأثرت بالغلبة الثقافة العربية التي انتظمت السودان الشرقي في أواخر القرن السادس عشر الميلادي.[9] ويؤكد ذلك، ما ذهب إليه البروفيسور عبد الله علي إبراهيم: بأن النسب" نظام جامع لأفكار جماعة ما عن نفسها. هو نظام لا يمنع كثرة الأفكار المتوهمة فيه من اعتناق أهله له. إن النسب كأيديولوجيا هو ثمرة لشغل النسابة كأيديولوجيين، يرتبون فيه معارفهم، ويطلقون فيه جامح خيالهم وبراعتهم، ويجرون عليه التعديلات اللازمة، ولا يساورهم أنهم يختلقون أو يكذبون."[10] ومن أهم مخطوطات الأنساب التي كُتبت عن "جعل الدُفَّار" هو مخطوط "**خلاصة الاقتباس في اتصال نسبنا بالسيد العباس**"، الذي أعده وراجعه السيِّد أحمد بن إسماعيل الولي (الأزهري) عام 1847م. ويوجد أصل هذا المخطوط بدار الوثائق القومية بالخرطوم تحت الرقم: منوعات، 175/15/1.[11] وفي مقدمة هذا المخطوط أوضح المؤلف أنَّ الهدف من تأليفه يكمن في بيان صلة رحم الذين ينسبون إلى جدَّه الفقيه

(9) يوسف فضل حسن، "مصادر تاريخ السلطنات الإسلامية في السودان، 1504-1821"، في: **دراسات في تاريخ السودان**، الجزء الثاني، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1989م، 41.

(10) عبد الله علي إبراهيم، **عبير الأمكنة: مجموعة مقالات**، الخرطوم: دار نسق، 1988م، ص 44-50.

(11) كُتب على الصفحة الأولى الخارجية للمخطوط: "خلاصة الاقتباس في اتصال نسبنا بالعباس تأليف الآخذ من مدد والده والغارف من بحر سيده السيد أحمد بن الولي إسماعيل منحه مولاه فيض والده الجزيل، آمين. التاريخ 1792." ويبدو من هذه الاقتباس أن المؤلف شرع في إعداد هذا المخطوط منذ عام 1792 وفرغ من مراجعته وتبيضه عام 4 جمادى الآخر 1263هـ الموافق 19 مايو 1847م.

بشارة الغرباوي، وذلك استناداً إلى رغبة والده الشيخ إسماعيل الولي (ت. 1861م)، الذي كان مهتماً بتوثيق صلات الذين ينتمون إليه رحماً. وقد أطلق الأزهري على النصّ الذي اخطته "**خلاصة الاقتباس**"؛ لأنه جمعه من مخطوطات عديدة، ذكر منها، نسخة جده لأمه الحاج محمد بن بشارة، المنسوخة من مخطوط عثر الجد عليه في مكة المكرمة إبان حجه في عهد الشريف سرور بن مساعد (1772-1786م)، فضلاً عن مخطوط ثالث يُنسب إلى الشيخ محمد بن عيسى بن عبد الله، ورابع إلى الشيخ السنهوري.[12] وعن منهج توظيفه لهذه المخطوطات، يقول الأزهري:

> "اقتبستُ منها الخلاصة، وضممتُ إليها ما استفدته بالسؤال من العُمد العارفين، ووضعتها نسبة تغني من يقف عليها بلا خصاصة، وذلك ضحوة يوم الأربعاء، رابع يوم من شهر الله جمادى الآخرة عام 1263، ألف ومائتين وثلاثة وستين من هجرة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم... وبعد الوقوف على صحة الأقوال في كتب المعتبرين من الائمة الأبطال، نبذتُ منها ما كان في بعض النسخ محض تحريف، واثبتُّ الصحيح الذي وقفتُ على صحته بعون الملك اللطيف، ثم عمدُت إلى تبيضها بعد زيادة أقوال يحتاج إليها المقام، وقد تضمنت ما وقع وما في ضمن الوقوع على سبيل التبيان والإعلام، فعند ذلك سميتها خلاصة الاقتباس في اتصال نسبنا بالسيد العباس."[13]

بقراءة متأنية لهذا المخطوط، نلحظ أيضاً أنَّ الأزهري قد سلك نهج الأقدمين في تأليف هذا المخطوط، حيث استهله بمقدمة عن أغراض التأليف المتعلقة بتكليف والده الشيخ إسماعيل الولي بوضع نسبة "عن جميع ذراري جدنا الفقيه بشارة الغرباوي من جهة نسبتهم إليه، واتصال نسبه بالملك ناصر ابن صلاح بن موسى الكبير، الشهير بمسوا، وفروع جميع جعل الدُفَّار الموجودين الآن"[14]. ثم أعقب المؤلف هذه المقدمة بفصل أول في بيان فضل النسب إلى السيد العباس بن عبد المطلب؛ وفصل ثانٍ عن وجوب تعلم النسب وما ينتفع به؛ وفصل ثالث في ذراري الفقيه بشارة الغرباوي، والسبب وراء تسميته بالغرباوي؛ وفصل رابع في النهي عن التفاخر بالأنساب؛ وفصل خامس عن قبائل العرب وجعل الدُفَّار وعلاقتهم بالفقيه بشارة الغرباوي. وفي بيان صلته بالفقيه بشارة الغرباوي، يقول السيد الأزهري: "أنا أحمد بن إسماعيل بن عبد الله

---

(12) المصدر نفسه 3.

(13) أحمد الأزهري، **خلاصة الاقتباس**، 2.

(14) المصدر نفسه، 3.

بن إسماعيل بن عبد الرحيم بابا بن الحاج حمد بن الفقيه بشارة الغرباوي"[15]، الذي يتصل نسبه بعمد ملوك الدُفَّار، "وهم طاقية مستقلة" وأهل سيادة في المنطقة[16]. وإنَّ الجد الخامس لبشارة الغرباوي "هو الملك ناصر بن صلاح بن موسى، الملقب بمسوا الكبير"، الذي يُعدُّ الجد المؤسس للملكناصرية الذين يقيم أحفادهم الآن في منطقة حسينارتي، ومنصوركتي، وقنتي، ودبة الفقراء (الفقهاء). ويقال إنَّ بشارة الغرباوي كان يتمتع بوضع ديني وسياسي مرموق في منطقة الدُفَّار؛ ولذلك أقطعه السلطان بادي بن السلطان نول (الشهير ببادي أبوشلوخ) جاهاً من الأرض عام 1145هـ (1732م) "لا عادة عليه، ولا عانة، ولا جباية، ولا علوق، ولا شيء قل أو جل من جميع مضار السلطة، لا في الحضر ولا في السفر إن شرقوا أو غربوا، فكل من تعرض له أو دناه لا يلومن إلا نفسه، والحذر الحذر من الخلاف، والمخالف لا يلومن إلا نفسه."[17]

تتطابق رواية الأزهري مع روايات بقية مخطوطات الأنساب أنَّ الجد الجامع لقبائل المجموعة الجعلية هو سرار بن السلطان حسن كردم، ولكنها تقر بأن الأصل الجامع لجعل الدُفَّار هو الملك صلاح، كما أشرنا من قبل. ويرى الأزهري أنَّ بعض الروايات التي تزعم "أن صلاحاً هو ابن محمد الدهمشي ابن بدير ابن سمرة"، فيها غلط؛ والتي تزعم "أن صلاحاً هو ابن محمد الدهمشي ابن بدير بن تركي ابن بدير ابن سمرة"، غير صحيحة؛ والتي تزعم "أن صلاحاً هو ابن موسى الكبير الشهير بمسوا فهو ابن محمد ابن صلاح بن بدير ابن سمرة"، أقرب إلى الصواب؛ أما الصحيح المعتمد من وجهة نظر الأزهري "أن صلاحاً هو ابن موسى الملقب بمسوا الكبير، فهو ابن محمد ابن صلاح ابن محمد ابن دهمش ابن بدير ابن سمرة ابن سرار."[18] وبهذه الكيفية ربط الأزهري نسب جعل الدُفَّار بالبديرية الدهمشية.

---

[15] في سبب تسميته ببشارة الغرباوي، يقول السيد أحمد الأزهري: "أنه لما جاء الشيخ إبراهيم البولاد ابن جابر من مصر، وجلس في جزيرة ترنج بأرض الشايقية، ودرس فيها خليل والرسالة كان جدنا الفقيه بشارة صغيراً، وكان الفقيه علي بن برسي أبو جدنا الفقيه بشارة رجلاً ديناً، يحفظ القرآن وشيئاً من العلوم، وخرج عن طور أهله واشتغل بالدين، وكان يحث ولده بشارة على الدين من بين إخوانه، فما سمع جدنا الفقيه بشارة بأخبار الشيخ إبراهيم البولاد قطع البحر من محل مسكنهم حوش مار بأرض ضنقلا، ووصل إلى الشيخ إبراهيم في جزيرة ترنج، وطلب عنده العلم والطريق، وجلس معه مدة، وكان اسم بشارة في تلاميذه كثير، فلقب جدنا الفقيه بشارة الغرباوي؛ لأن محل جدنا كان حوش مار غرب الجزيرة التي فيها الشيخ، وكان يقطع جدنا البحر من جهة الغرب، ويسير إلى الشيخ بجزيرة ترنج بالشرق، فلما سماه الشيخ إبراهيم الغرباوي اشهر اسمه به، وكان اجتماعه به في القرن الحادي عشر الهجري، وخدمه وأخذه عنه العلم وطريق معاملاته؛ لأن الشيخ إبراهيم البولاد كان من أعظم الفضلاء الصالحين وأجل العلماء العاملين، أول من درس خليلاً ببلاد الفنج." انظر أحمد الأزهري، **خلاصة الاقتباس**، ص 35.

[16] المصدر نفسه، 30.

[17] المصدر نفسه، 30-31.

[18] المصدر نفسه، 11-12.

ومن أهم المخطوطات التي وثقت لتاريخ نشأة مملكة البديرية في الدُفَّار هو مخطوط "**جواهر الأصول في ذكر أهل بيت الرسول**" لمؤلف محمد علي العجيمي[19]، الذي يقول بشأن مصادره: "فقد طلبتُ كتب النسب الجامعة لجعل مدينة الدُفَّار، وقبائلهم، فظفرتُ بعون الله تعالى بأنساب عديدة، منها ما حررها أجدادنا العباسية بالبلد الحرام، ومنها ما حررها خلفهم بمدينة الدُفَّار، فاجتنيت منها عدد خلفائهم ونذراً من صالح سيرتهم، وسنين مملكتهم، واغترفتُ جملاً من مستندات تواريخها القاضية لأهل هذا النسب الهاشمي الشريف، عالي القدر المنيف، بالقرابة المحمدية، التي كان لهم بها جداً، صلى الله عليه وسلم، من هذه الحيثية، والله الهادي بفضله إلى صراطه المستقيم." [20] ومن بين المصادر المهمة التي أشار إليها الشيخ العجيمي كتاب "الصحايح التاريخية في العهود الدُفَّارية" للإمام النشري؛ إلا أن هذا الكتاب يُعدُّ من مفقودات المكتبة السودانية. ولذلك لا يمكن التثبت في صدقية المعلومات الواردة فيه، أو التي نقلها إلينا الذين أطلعوا عليه واستأنسوا بمحتوياته أمثال الشيخ العجيمي. ومن القضايا التي ذكرها العجيمي استناداً إلى النشري، وتستدعي إمعان النظر، هي الزعم بأن مملكة الدُفَّار قد نشأت في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وأن مؤسسها هو السيد أحمد الحجازي العباسي. ونلحظ أن هذا التاريخ يتعارض مع معظم الروايات المتداولة في الكتب التاريخية عن هجرة العرب إلى السودان، علماً بأن أول دول مسلمة في السودان هي دولة بني كنز في القرن الرابع عشر الميلادي[21]، كما سنفصل لذلك في مواضعه من هذه الورقة.

إلى جانب مخطوطات الأنساب، توجد كتب التراجم والمخطوطات التي تناولت بعض الجوانب الاجتماعية والسياسية والفكرية لتاريخ دار البديرية، وسير بعض أعلامها الذين أسهموا في تشكيل الوعي الديني في العهد السناري وما بعده (أي العهد التركي المصري). ونذكر من هذه المخطوطات والكتب، كتاب

---

(19) كتب العجيمي على الصفحة الأخيرة لهذه المخطوط "وكان الفراغ من إملاء هذه السيرة وتمام مكارمها العلية في شهر الله ربيع الأول، واحد منه، عام 1365 هجرية." ويوافق هذا التاريخ 2 فبراير 1946م. وبعد وفاة الشيخ العجيمي نُشر هذا المخطوط في كتاب بعنوان: "المولد المسمى بكامل الأنوار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وسلم، تأليف حجة الإسلام والمسلمين، العارف بالله تعالى والدال عليه سيدي السيد محمد علي بن علي العجيمي، رضي الله عنه ونفعنا بعلومه، آمين"، ط3، الخرطوم: مطبعة التمدن، 1393هـ. وألحق في هذا الكتاب مخطوط جواهر الأصول، قسم العجيمي جواهر الأصول إلى ستة فصلاً، وهي: فصل في دخول الصحابة السودان؛ فصل في بعض علامات حكمية في تمييز العرب؛ فصل في مطلب مرتبتي النسب؛ فصل في صريح إذني بإملائه؛ فصل في اشتراط ما يلزم من النسب شرعاً؛ فصل في النهي عن الطعن في نسب الغير؛ فصل في أهل قربته صلى الله عليه وسلم؛ فصل في محل قربتهم له صلى الله عليه وسلم؛ فصل في تعيين مودتهم رضى الله تعالى عنهم؛ فصل في أهل الكساء والعلامة منهم رضي الله تعالى عنهم؛ فصل في وراثة العباس للنبي صلى الله عليه وسلم وكمال شرفه؛ فصل في الأحاديث الواردة في حقه رضي الله عنه؛ فصل في معرفة أبنائه الكرام، السادة الأعلام؛ فصل في نذر فضائلهم، ورضى الله عنه الله تعالى عنهم؛ فصل في دخولهم السودان؛ فصل في عدد خلفائهم بدفار دنقلا بالسودان." انظر محمد علي العجيمي، **جواهر الأصول**، 50.

(20) محمد علي العجيمي، **جواهر الأصول**، 59.

(21) لمزيد من التفصيل انظر، يوسف فضل حسن، **دراسات في تاريخ السودان**، ج1، الخرطوم: جامعة الخرطوم، دار التأليف والترجمة والنشر، 1975م، 24-53.

الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله (1727-1809م)، الذي يُعد مرجعاً عمدةً في تراجم رجال الطرق الصوفية، وبعض الملوك، والمشايخ، والقضاة والشعراء في عهد دولة الفونج (1504-1820م). وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة، يمثل الأول منها خطبة الكتاب، ويؤرخ الثاني في إيجاز شديد لنشأة مملكة الفونج وبعض العلماء والمتصوفة الأوائل، ويحتوي القسم الثالث والرئيس منه على مائتي وسبعين ترجمةً، تتفاوت في الطول والقصر حسب المعلومات التي كانت متوفرة عن المترجم له في ذلك الزمان. وتجمع معظم التراجم بين ثناياها تفاصيل عن حياة المترجم له، تشمل مكان مولده، ونسبه لأبيه وأمه، والعلوم التي درسها، وأسماء أساتذته، والشيوخ الذين أخذ عنهم طريق القوم، ثم التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه العلم أو الطريق، وأسماء الكتب التي أطلع عليها أو ألفها، فضلاً عن ذكر الكرامات وخوارق العادات المنسوبة إلى الأولياء والصالحين، والتي درج العامة والخاصة على تداولها بشيء من القدسية والاحتفاء[22]. ويذكر كتاب الطبقات في هذا المضمار سير رهط من العلماء والصالحين الذين نشأوا في أحضان دار البديرية ومحيطها الجغرافي، أمثال: الشيخ محمد بن عيسى سوار الدهب، والشيخ عبد الرحمن بن جابر، والشيخ عووضة ود شكال القارح الحضري، وكذلك التلاميذ الذين درسوا على أيديهم، وتفرقوا في بقاع السودان المختلفة. وتفيدنا هذه التراجم في رسم خارطة للعلاقات الاجتماعية والروابط العلمية التي نشأت في دار البديرية، وكيف أسهمت في تشكيل بنية العقل الفقهي والصوفي في العصر السناري، وفي صوغ المزاج العام الذي كان متأثراً بأدبيات المدارس التقليدية، وتحديداً المدرسة المالكية، وكذلك بتعاليم المتصوفة وتجلياتهم العرفانية.

وإلى جانب كتاب الطبقات يوجد مخطوط "أبطال السودان"، لمؤلفه محمد عبد الرحيم[23]، والذي يُعدُّ من المصادر المهمة في تاريخ أعلام دار البديرية، التي جمعها المؤلف من المصادر التاريخية القديمة

---

(22) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات في خصوص والأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان**، (حققه وعلق عليه وقدم له)، يوسف فضل حسن، ط 4، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر، 1992م، ص 26.

(23) هو محمد عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن شريف بن محمد (1878-1966م)، الذي يُنسب من جهة أبيه إلى البديرية الدهمشية، ومن جهة أمه إلى هوارة الأبيض. وُلِدَ في كبر الهبوب شمال مدينة الأبيض، بولاية شمال كردفان. وبعد تحرير مدينة الأبيض في يناير من عام 1883م رافق والده الذي انضم إلى جيوش المهدية الزاحفة نحو العاصمة الخرطوم آنذاك. وبعد تحرير مدينة الخرطوم رافق والده الذي انضم إلى قوات عبد الرحمن النجومي، التي كلفها الخليفة عبد الله بغزو مصر، وبعد هزيمة الأنصار في واقعة توشكي، تمكن محمد عبد الرحيم من العودة إلى أمدرمان، حيث اشترك في معركة كرري في الثاني من سبتمبر 1898م. وفي سنوات العهد الثنائي الأولى درس القران والفقه والتوحيد وقواعد اللغة العربية على العديد من شيوخ عصره، ونذكر منهم صالح علي الأزهري، ومحمد الباقر الولي، وحسن الأمين الضرير، وبعدها سافر إلى الأزهر، لمواصلة تعليمه في الفقه واللغة والأدب العربي. وبعد عودته إلى السودان، التحق بخدمة حكومة السودان في 26 مارس 1904م، وعمل محاسباً في العديد من مدن السودان إلى أن تقاعد في 1934م. وأثناء فترة عمله وبعد تقاعده كرَّس جهده لدراسة تاريخ السودان، حيث جمع كثيراً من الروايات الشفوية والمكتوبة، وانتقد بعض الكتابات المصرية عن تاريخ السودان، ونشر العديد من المقالات في الصحف المصرية والسودانية. ومن أهم مؤلفات المنشورة والمخطوطة: أمثال الحضر والبدو بلهجة سكان الوادي؛ بدائع الأثر في أخبار المهدي المنتظر؛ الدر المنثور في تاريخ العرب والفور؛ موسوعة الشخصيات السودانية من أقدم العصور حتى العهد الأخير؛ نفثات اليراع في الأدب والتاريخ والاجتماع (مجلدين)؛ النداء في دفع الافتراء. لمزيد من التفصيل انظر، عبد العزيز محمد موسى إسحاق، "محمد عبد الرحيم مؤرخ السودان"، **المؤتمر العلمي العالمي: نحو منهج علمي لكتابة التأريخ: تاريخ الإسلام وتاريخ**

والروايات الشفوية والمقابلات التي أجراها مع بعض الشخصيات المهتمة بتراث الدُفَّار بصفة خاصة وتاريخ المنطقة بصفة عامة، أثناء رحلته إلى الولاية الشمالية (أو مديرية الشمالية آنذاك) في أربعينيات القرن العشرين. ويُعد مخطوط أبطال السودان من أهم المصادر التي اعتمد عليها عون الشريف قاسم في إعداد **موسوعة القبائل والأنساب في السودان**[24]، ولذلك يمكن الإفادة منهما في رسم الملامح العامة لتاريخ دار البديرية الاجتماعي والسياسي والثقافي، وكذلك الروابط التعليمية التي نشأت بين علماء تلك الحقبة، وأسهمت في تشكيل الوعي المعرفي رأسياً وأفقياً.

وفي العام 1953م جمع وأعدَّ الشيخ البدوي محمد نافع الأمين[25] مخطوطاً بعنوان: "كتاب في ذكرة السيد غلام الله ابن عايد، وذكرة أولاد جابر، وذكرة ذرية السادات الركابية ومن تناسل منهم والمساجد التي عملت من ذريتهم بالسودان". استهل البدوي المخطوط بمقدمة عن أسباب التأليف، وأهمية الشيخ غلام الله بن عايد وانساب أحفاده المنتشرين في بقاع السودان المختلفة، ثم بعد ذلك تطرق إلى مصادر المخطوط التي حصرها بقوله: "تحصلت من أناس ثقات من رجال الدين، وكما تحصلت عن نسخة من والدي نافع بن الأمين، وجدتها بخط يده، وأيضاً نسخة وجدتها بخط والدي محمد زين الجابرابي الذي مسكنه بالبواليد نسري، بود حامد ... وذكر [فيها] من تخلف من ذريته كأولاد جابر، والسيد حسن بليل، والسيد محمد حبيب نسي، والمساجد التي وضعوها أولاده من بعد." ثم بعد ذلك أفرد فصولاً مسلسلةً عن لأصول غلام بن عايد وأحفاده السادة الركابية وفروعهم في السودان. وواضح من سرديات البدوي نافع أنه اعتمد على طبقات ود ضيف في بعض معلوماته. ولا ندري هل استقى هذه المعلومات من المصدر الأصل، أم من بعض المخطوطات التي استشارها؛ لأن بعض الروايات فيها نوع من الاسترسال والتحريف الذي لا يتفق مع روايات ود ضيف الله.

وإلى جانب المصادر المذكورة أعلاه، توجد كتب الرحالة الأوروبيين الذين أبحروا في النيل جنوباً بعض المعلومات العامة عن دار البديرية، وسكانها، جغرافيتها البشرية، وآثارها المعمارية. ونذكر من هؤلاء الرحالة

السودان نموذجاً، رؤية نقدية". الخرطوم: جامعة القران الكريم والعلوم الإنسانية بتعاون مع اتحاد الجامعة العربية، 18-19 ديسمبر 2013م.

(24) عون الشريف قاسم، **موسوعة القبائل والأنساب في السودان، وأشهر أسماء الأعلام والأماكن**، 6 جزاء، الخرطوم: شركة آفروقراف للطباعة والتغليف، 1996م. وقد أهدى عون الشريف هذه الموسوعة "إلى روحي الشيخين المجاهدين الأستاذين محمد عبد الرحيم (1869-1961م) وعثمان حمدنا حمدنا الله (1893-1968م) اللذين أفنيا زهرة العمر في جمع أنساب أهل السودان، وانفقا كل ما يملكان لينشرا على الناس بعض ما جمعا، وما تركاه مخطوطاً أضعاف ما نشر."

(25) هو الشيخ "البدوي بن محمد بن نافع بن الأمين بن مدني بن نافع الأكبر بن عبد الرحمن بن الحاج محمد بن سالم بن مالك بن إبراهيم البولاد بن جابر"، كان والده إماماً لمسجد الكرفاب بحري، وخلفه ابنه البدوي بعد وفاته عام 1932م. ومن جمع مادة هذا المخطوط قام الشيخ البدوي بزيارات ميدانية لبعض القرى التي يوجد فيها أحفاد غلام بن عايد في الولاية الشمالية، زار مقابرهم وقبابهم، كما جمع بعضها من الروايات الشفوية التي كانت متداولة بين الناس، ومن مخطوط ورثه من والده محمد نافع الأمين، وآخر بخط محمد زين الجابرابي بالبوليد نسري بريفي ود حامد. لكن أجزاء كثير من المخطوط يبدو أنه نقلها من طبقات محمد النور بن ضيف الله بنوع من التصرف.

الفرنسي مونفيور بونسيه (Monfeur Pocent) [26] الذي مر بالمنطقة أثناء رحلته إلى أثيوبيا؛ والاسكتلندي جميس بروس (James Bruce)[27] في كتابه "رحلات في اكتشاف منابع النيل"؛ والسويسري جون لويس بوركهارت (John Lewis Burchardt)[28] في كتابه "رحلات في بلاد النوبة"؛ وجورج وادنجتون وبرنارد هابري (George Waddington and Barnard Habury)[29] في كتابهما رحلة إلى بعض إجزاء أثيوبيا؛ والفرنسي فردريك كايو (Frederic Gailliaud)[30] في كتابه "رحلة إلى مروي والنيل الأبيض، وما وراء فازعلي وسط مملكة سنار"، والرحالة الإنجليزي هوسكنز (G. A. Hoskins) [31] في كتابه "رحلات في إثيوبيا". وتقدم مشاهدات هؤلاء الرحالة، وتجاربهم الشخصية عن المناطق التي زاروها، وانطباعاتهم التي سجلوها عن سلوكيات الناس صورة ذهنية حيَّة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، كما أنها تزخر بمعلومات مهمة عن نظم الحكم التي كانت سائدة آنذاك، وطبيعة الجغرافية البشرية، وأنماط الحياة الإنسانية، فضلاً عن الآثار المعمارية التي أنشئت قبل وبعد أسلمة أهل السودان النيلي.

ويمكن أن تكتمل صورة هذه المصادر الأولية إذا استأنس الباحث بالآثار المعمارية، التي تمَّ اكتشافها في الخندق، ودنقلا العجوز، ودبة الفقراء، وكرمكول، وقوشابي، وقنتي، ومنصوركتي، وحسينارتي، وكورتي على الضفة اليسرى للنيل؛ وجزيرة تنقسي، وأبكر، والدُفَّار على الضفة اليمني للنيل، والدراسات الناتجة عنها. وقد قدَّم الأستاذ أحمد حسين عبد الرحمن آدم إضاءات مهمة عن أهمية الآثار في دراسة تاريخ المنطقة

---

(26) انظر:

Monfieur Poncet, *A Voyage to Athiopia Made in the Years 1968, 1699 and 1700*, London: W. Lewis, 1709.

(27) انظر:

James Bruce, *Travels to Discover the Sources of the Nile in the Years 1768, 1869, 1771, 1772 & 1773*, Edinburgh: George Ramsay and Company, 1808.

(28) انظر:

جون لويس بوركهات، **رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان** (ترجمة: فؤاد أندراوس)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة والفنون، 2007م.

(29) انظر:

George Waddington and Barnard Habury, Journal of A Visit to Some Parts of Ethiopia, London: John Murray, Albemarle-Street, MDCCCXXII (1822).

(30) فردريك كايو، **رحلة إلى مروي والنيل الأبيض وما وراء فازوغلى وسط مملكة سنار وإلى سيوة وفي خمس واحات أخرى** في السنوات: 1819، 1820، 1821، 1822م، (ترجمة: فضل أحمد أسماعيل علي)، جزآن، الخرطوم: الجامعة المفتوحة، 2012م.

(31) انظر:

G. A. Hoskins, Travels in Ethiopia, London: Longman, 1835.

في أطروحته الموسومة بـ "الدلالات الآثارية للامتداد السياسي والديني لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث".[32]

أما المراجع الثانوية الحديثة التي تناولت تاريخ المنطقة من جوانب مختلفة، فتشمل كتاب نعوم شقير، **جغرافية وتاريخ السودان**؛[33] وكتاب نكولز، **الشايقية**؛[34] وكتاب ماكمايكل، تاريخ العرب في السودان[35]؛ و كتاب كروفورد، **مملكة الفونج**[36]؛ فضلاً عن الأدبيات الحديث، مثل: يوسف فضل حسن، **دراسات في تاريخ السودان**؛[37] وسمير محمد عبيد نقد، **غلام بن عايد وآثار في السودان**[38]؛ وأحمد إبراهيم أبوشوك، **العمدة أحمد عمر كمبال: ملامح من تاريخ كورتي وشذرات في سيرة الرجل**[39]؛ وأحمد حسين عبد الرحمن آدم، "الدلالات الآثارية للامتداد السياسي والديني لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث".

ممالك دار البديرية: النشأة والتطور

بعد قيام الحلف الفونجاوي-العبدلابي عام 1504م، بسط العبدلاب نفوذهم على الإقليم الممتد بين حجر العسل جنوباً والشلال الثالث شمالاً، وخضعت لهم في هذا الفضاء الواسع مملكة الجعليين، والميرفاب، والرباطاب، والمناصير، والشايقية، والدُفَّار، وأبْكُر، وتنْقَسي، ودُنْقُلا العجوز، والخندق، والخناق، وأرقو. وقد رجَّح يوسف فضل أن يكون تأسيس هذه الممالك قد حدث قبل قيام سلطنة الفونج، تعللاً بأن السلطة انتقلت فيها من يد الحكام النوبيين إلى العرب المهاجرين الذين تصاهروا معهم.[40] وداخل حدود دار البديرية توجد أربع ممالك، هي: دُنْقُلا العجوز، وتنْقَسي، وأبْكُر، والدُفَّار. وبعد ثورة عثمان ود حمد العامرابي على العبدلاب في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي خضعت تلك الممالك لإدارة المناجل إبراهيم الذي

---

(32) أحمد حسين عبد الرحمن آدم، "الدلالات الآثارية للامتداد السياسي والديني لدولة الفونج بين الشلالين الرابع والثالث"، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآثار، جامعة الخرطوم، 2004.

(33) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، ط2، بيروت: دار الثقافة، 1967م.

(34) انظر:

Nichols, *The Shaikia: An Account of the Shaikiya Tribes and of the History of Dongola Province from the XlVth to the XlXth Century*, Dublin: Hodges, Figgis & CO., LTD., 1913.

(35) انظر:

H.A. MacMichael, *A History of the Arabs in the Sudan*, 2nd ed., London: Frank Cass & Co. Ltd., 1967.

(36) انظر:

O.G.S. Crawford, he Fung kingdom of Sennar : with a Geographical Account of the Middle Nile Region, London: J. Bellows, 1951.

(37) يوسف فضل حسن، **دراسات في تاريخ السودان**، ج1، الخرطوم: جامعة الخرطوم، دار التأليف والترجمة والنشر، 1975م.

(38) سمير محمد عبيد نقد، **غلام الله بن عايد وآثاره في السودان**، الخرطوم: دار عزة للنشر والتوزيع، 2007م،90.

(39) أحمد إبراهيم أبوشوك، **العمدة أحمد عمر كمبال: ملامح من تاريخ كورتي وشذرات في سيرة الرجل، الخرطوم: دار مدراك، 2015م.**

(40) يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ المماليك الإسلامية**، 8-10.

بعثه سلطان سنار من حاضرة السلطنة مع رهط من أفراد أسرته؛ لاستتباب الأمن والاستقرار، وتحصيل الإتاوات السلطانية في إقليم دنقلا. وبهذه الإجراء نشأت تراتبية إدارية، تتمثل في شيخ العبدلاب في قري، وممثل السلطان في دنقلا العجوز، ثم ملوك ممالك منطقة البديرية في قاعدة الهرم الإداري. وتؤكد ذلك وثيقة تمليك أصدرها السلطان بادي بن نول بشأن أعفاء الضرائب والزكوات المفروضة على زريبة "الفقيه عبد الهادي ولد محمد ولد عبد الهادي ولد دوليب"، كما أشرنا من قبل، وبموجب ذلك، حذر السلطان الشيخ عبد الله ولد عجيب في الحلفاية، والشيخ مسند ولد إبراهيم الفونجاوي الذي خلف والده إبراهيم في دنقلا، ثم ملوك "ضنقلاً"، بما فيهم ملوك ممالك البديرية، بعدم التعرض لذلك الجاه الذي منحه إلى الفقيه عبد الهادي ولد دوليب. ويبدو اختصاص شيخ العبدلاب كان قاصراً على الإشراف العام وتعيين حكام ممالك ضنقلا وعزلهم. والشاهد في ذلك القصة التي يرويها صاحب الطبقات بأن الفقيه عبد الرازق الدنقلاوي، الذي عاصر الشيخ عووضة ود شكال القارح، أخبره بأن ولد عجيب أرسل رسلاً؛ لعزل ولد قنديل شيخ دنقلا من الدولة، فلما سمع بذلك مشى إلى الشيخ عووضة وأخبره." فقال له الشيخ عووضة: "تجيب أربعماية قرش للفقراء، قال: أجيبهن. فلما أتى بهن، أعطاه جبته وقال له: ألبسها حين يأتوك الرسل، فلما جاءوه لبسها من تحت، ولبس فوقها القماش، وحين دخل عليه المراسيل صعب عليهم الكلام من أن يقولوا له: ولد عجيب عزلك، واستمر الحال هكذا حتى أتاهم جمل من قري بالتأييد له، وتركه في منصبه." [41]

أما عن تاريخ ممالك دار البديرية الأربع وتطورها السياسي، فلا تقدم المصادر التاريخية معلومات تفصيلية عنها، بل شذرات متناثرة عن نشأتها وتطورها واضمحلالها، وتوجد مثل هذه الشذرات في كتاب الشيخ العيجمي عن مملكة الدفار؛ والتي يفترض أنها قد أُسست في سنة مائة وسبعين هجرية في عهد الخلافة العباسي هارون الرشيد، وذلك بدخول السيد أحمد الحجازي إلى مدينة الدُفَّار، والذي استمرت ولايته وأحفاده فيها "عدلاً وصلاً إلى أن بلغت من السنين سبعماية وعشرة سنين"، وذلك ابتداءً "من عهد السيد أحمد الحجازي المذكور إلى عهد الملك موسى الأصغر وإلى ولي عهده وخليفة محله ابنه الأكبر السيد حمَّاد الملقب بضريس." وكذلك يقول الشيخ العجيمي: وبعد أزمان امتدت حدود الدُفَّار إلى "بلدة يقال لها أبكر، واتصلت عماراتهما إلى أن كان البلدتان مدينة واحدة، شاهقة عظيمة، حتى أحدثوا فيها خمسة عشر جامعاً، كما نقل لنا من الصحايح التاريخية."[42]

تثير هذه النصوص المختارة جملة من التساؤلات التي ربما تقدح في مصداقية "**جواهر الأصول**" إذا قارنها بالمصادر الأخرى التي تناولت ملامح عن تاريخ مملكة الدُفَّار ونشأتها. أولاً: من الناحية التوثيقية يصعب التثبت من صحةً رواية الشيخ العجيمي في **جواهر الأصول**؛ لأن المصدر الذي اعتمد عليه، الصحايح

---

(41) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 271-273.

(42) المصدر نفسه، 26.

التاريخية، لم يكن متوفراً في المكتبة السودانية للتحقق من صحة معلوماته التي تتعارض مع الروايات المشهورة والمتداولة عن نشأة تاريخ مملكة الدُفَّار. ثانياً: إنَّ الافتراض بأن مملكة الدُفَّار كانت تمثل حاضرة لقبائل البديرية والشايقية والجعليين محل نظر؛ علماً بأن الشايقية والجعليين كان لهم كينوناتهم السياسية القائمة بذاتها، والمستقلة عن مملكة الدُفَّار سياسياً وجغرافياً. ثالثاً: إن ربط نشأة مملكة الدُفَّار بالسيد أحمد الحجازي العباسي في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد فيه إرباك لحركة التاريخ؛ لأن المنطقة التي أطلق عليها لاحقاً اسم الدُفَّار كانت تخضع لمملكة النوبة المسيحية، ولم يتغير هذا الوضع إلا في القرن الرابع عشر الميلادي، عندما ولى السلطان محمد الناصر قلاوون (1285-1341م) عبد الله برشمبو (أو عبد الله نشلي كما ورد في كتاب تاريخ ابن خلدون) على النوبة؛ إلا أن فترة حكمة القصيرة قد شهدت صراعاً سياسياً داخل البيت النوبي، أفضى في خاتمة المطاف إلى سيطرة بني كنز، الذين علَّق المؤرخ المصري شمس الدين النويري على ولايتهم على النوبة قائلاً: "فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فملك البلاد حينئذ ولبس تاج الملك، واستقل بالمملكة، وضم إليه العرب، واستعان بهم على من ناوأه."[43] وبنو كنز من قبائل ربيعة التي حكمت صعيد مصر، وامتد نفوذها إلى بلاد النوبة والبجة في عهد المماليك، مُشكِّلةً بذلك أول وجود إسلامي سياسي في شمال السودان في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي. وبهذا التطور التاريخي الموثق لسلطة مملكة النوبة المسيحية إلى بداية القرن الرابع عشر للميلاد، تدحض رواية الشيخ

(43) شمس الدين النويري (733هـ/1333م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، (تحقيق إبراهيم شمس الدين)، الجزء 33/32، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م، ص 182. يصف ابن خلدون حالة الفوضى السياسية التي حلَّت ببلاد النوبة في تلك الفترة بقوله: "أخبار النوبة وإسلامهم قد تقدم لنا غزو الترك إلى النوبة أيام الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون لما كان عليهم من الجزية التي فرضها عمرو بن العاص عليهم، وقررها الملوك بعد ذلك. وربما كانوا يماطلون بها أو يمتنعون من أدائها فتغزوهم عسكر المسلمين من مصر حتى يستقيموا. وكان ملكهم بدنقلة أيام سارت العساكر من عند قلاوون إليها سنة ثمانين وستمائة واسمه سمامون. ثم كان ملكهم لهذا العهد اسمه آي لا أدري أكان معاقباً لسمامون أو توسط بينهما متوسط. وتوفي آي سنة ست عشرة وسبعمائة وملك بعده في دنقلة أخوه كربيس. ثم نزع من بيت ملوكهم رجل إلى مصر اسمه نشلي وأسلم فحسن إسلامه وأجرى له رزقاً وأقام عنده. فلما كانت سنة عشرة امتنع كربيس من أداء الجزية فجهز السلطان إليه العساكر وبعث معها عبد الله نشلي المهاجر إلى الإسلام من بيت ملكهم فخام كربيس عن لقائهم وفر إلى بلد الأبواب. ورجعت العساكر إلى مصر واستقر نشلي في ملك النوبة على حاله من الإسلام. وبعث السلطان إلى ملك الأبواب في كربيس فبعث به إليه وأقام بباب السلطان. ثم إن أهل النوبة اجتمعوا على نشلي وقتلوه بممالأة جماعة من العرب سنة تسع وبعثوا عن كربيس ببلد الأبواب فألفوه بمصر. وبلغ الخبر إلى السلطان فبعثه إلى النوبة فملكها وانقطعت الجزية بإسلامهم. ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم واستوطنوها وملأوها عيثاً وفساداً. وذهب ملوك النوبة إلى مدافعتهم فعجزوا. ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم وثار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية للآفة التي تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض فصاروا شيعاً لهذا العهد. ولم يبق لبلادهم رسم للملك وإنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادي الإعراب. ولم يبق في بلادهم رسم للملك لما أحلته صبغة البداوة العربية من صبغتهم بالخلطة والالتحام والله غالب على أمره والله تعالى ينصر من يشاء من عباده." انظر عبد الرحمن بن خلدون (ت. 808هـ/1406م)، **تاريخ ابن خلدون: المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، جزء 5، بيروت دار إحياء التراث العربي، 1999م، ص 418-419.

العجيمي بأن الصحابي عبد الله بن أبي السرح وأصحابه "مكثوا زمناً طويلاً حتى تلاشى أمر النوبة، وتفرقوا في الجهات شيئاً فشيئاً، واستمرت ولاية العرب فيه إلى أن ابتدأت دولة العباسيين به بخلافة سيدنا أحمد الحجازي ابن إبراهيم جعل بن السيد سعد بن السيد الفضل ابن حبر الأمة السيد عبد الله بن عباس في سنة وسبعين بعد المايه."[44]

وبناءً على ذلك يمكن التشكك في صحة ما ذكره الشيخ العجيمي، نقلاً عن الصحايح التاريخية في العهود الدُفَّارية، بشأن تسلسل ملوك مملكة الدُفَّار الموضَّح أدناه:

> "إن أول من بُويِع بالخلافة منهم، وهو السيِّد أحمد الحجازي سنة اثنين وسبعين بعد المايه، وهو ابن السيد إبراهيم جعل بن السيد سعد بن السيد الفضل بن السيد عبد الله بن السيد العباس رضي الله تعالى عنه. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة محله ابنه السيد محمد. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة محله ابنه السيد سراقة. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة محله ابنه السيد سريان. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة محله ابنه السيد قضاعة. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة محله ابنه السيد ابن أبي الديس. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة سجادته ابنه السيد كردم الذي صح أنه ملك عموم السودان من غير مشاكل. ثم بُويِع من بعده، أي السيد كردم، ولي عهده وخليفة سجادته ابنه السيد سرار، وهو أكبر أولاده، وكان الأب الجامع لقبيلة السادة البديرية، والشايقية، وله ثلاثة أولاد: السيد سامر، والسيد سمير، والسيد مسمار [...]. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة سجادته ابنه السيد سامر. ثم بُويِع من بعده ولي عهده وخليفة سجادته ابنه السيد بدير. [...] ثم بُويِع هو، أي السيد محمد دهمش [... الذي] تزوج ببنت السيد غلام الله الحسيني، وولد منها ولي عهده وخليفة سجادته الذي بُويِع من بعده وهو ابنه السيد صلاح الشهير بسالا، وهي كلمة رطانة معناها صلاح، كان رضي الله تعالى عنه من الأولياء الكبار، وقبره إذاً في القبة التي بقرب دنقلة يزار، وهو جد جميع السادة الدهمشية الذين هم بدنقلة والنازح القليل منهم إلى غيرها."[45]

لا يستقيم هذا النص مع رواية السيد أحمد الأزهري، الذي يعتقد أن "صلاح ابن موسى الكبير ابن محمد ابن صلاح ابن محمد ابن دهمش ابن بدير ابن سمرة ابن سرار" هو الجد المؤسس لمملكة جعل الدُفَّار، وذلك في النصف الأول القرن السادس عشر الميلادي؛ ولا مع الافتراض الذي قامت عليه هذه الدراسة بأن

---

(44) محمد علي العجيمي، **جواهر الأصول**، 53.

(45) المصدر نفسه، 83-86.

مملكة الدفار نشأت قبل الملك صلاح بن موسى الكبير؛ فضلاً عن أن محمد دهمش الذي خلفه على سدة الحكم قد تزوج من بنت غلام بن عايد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، إذاً بكل المقاييس لا يمكن قبول نشأة مملكة الدُفَّار في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد.

رأسياً خضعت مملكة الدُّفَّار لسلاطين الفونج خضوعاً اسمياً عن طريق العبدلاب، وبعد ثورة عثمان ود حمد العامرابي على العبدلاب خضعت إدارياً لممثل الفونج في دُنْقُلا العجوز.[46] ويتجلى ذلك الانصياع السياسي في الجزية التي درج ملوك الدُّفَّار على دفعها إلى سنار، ووثائق التمليك التي كانت تصدر من سلاطين الفونج إلى الحكَّام المحليين بشأن إقطاعيات الأراضي التي كانوا يمنحونها إلى الفقهاء والمتصوفة ووجهاء المجتمع. كما فعل السلطان بادي بن نول عام 1157هـ/1744م، عندما أقرَّ ملكية الفقيه عبد الهادي محمد عبد الهادي دوليب على زريبة جدَّه ود دوليب، وأعلم بذلك ملوك دار البديرية الذين كانوا تحت ملكه، وذلك بقوله:

> "نوكد عليكم يا جميع الشيوخ والمقاديم والجراي الذي تحتهم إلى حد ملكي كله، خصوصاً الشيخ عبد الله ولد عجيب وشيوخه ومقاديمه، وملوك ضنقله وجرايهم، خصوصاً الشيخ مسند ولد إبراهيم وجرايه وخدامه، والشيخ سوه ولد محمد ولد الوناوي وجرايه وخدامه، والأرباب محمد ولد الملك علي وجرايه وخدامه، والملك عون ملك الخندق، وجرايه وخدامه، والملك صلاح وخدامه وجرايه، والملك موسى ولد إمامة ولد دُفَّار وخدامه وجرايه، والملك صلاح وخدامه وجرايه، وملوك الجابرية وخدامهم وجرايهم، وجميع من هو تحت ملكي، لا أحد يتعرض لهذا الجاه، ومن تعرض له بعد كلامي هذا عرض نفسه للهلاك".[47]

وبنهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر للميلاد بدأ نفوذ سلطنة الفونج يضمحل في المنطقة، وشرع الشايقية في شن غاراتهم على "البلاد الواقعة شمالاً من كُورتي إلى حنك ..... ، فنهبوا، وخربوا، وأثاروا الرعب، والفزع في نفوس الأهالي، ونتج عن ذلك التخريب هجرة مجموعات من أهالي المنطقة إلى كردفان، ودارفور، وبربر."[48] ويصف الرحالة براون المناطق التي هجرها أهلها بأنها كانت أفضل من دارفور في جميع

---

(46) يقول جي اسبولدنق، نقلاً عن الرحالة هوزكنس (Hoskins) الذي زار منطقة دُنْقُلا العجوز في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، إن أول ملوك الفونج في دُنْقُلا هو المانجل إبراهيم الذي خلفه ابنه مُسند. لمزيد من التفصيل انظر:

R. O. O'Fahey and J. L. Spaulding, *Kingdoms of the Sudan*, London: Methuen & Co. LTD., 1974, pp. 66-68, 100-104

(47) انظر جي اسبولدنق ومحمد إبراهيم أبوسليم، وثائق تمليك من سنار، ص 71-73.

Jay Spaulding & Muhammad Ibrahim Abu Salim, eds., *Public Documents from Sinnar*, Michigan: Michigan State University, 1989, 71-73.

(48) انظر، و. و. نكولز، **الشايقية**، 18.

مميزاتها الطبيعية، لكنها "كانت مسرحاً للتدمير، وسفك الدماء، فلم يكن فيها حكومة مستقرة، وأسهمت الانقسامات الداخلية في تمزيقها، وظلت غارات الشايقية والقبائل القاطنة بين النيل والبحر الأحمر تلقي الرعب في نفوس الأهالي."[49]

ويظهر ذلك التشظي السياسي في وثيقة حصلتُ عليها من جامعة بيرغن (النرويج)، يوضح مؤلفاها الخواجة يوسف خير حبيب، والخواجة إبراهيم باذ كيف قُسِّمت مملكة الدُّفَّار إلى كينونات سياسية صغيرة، آل حكمها لبعض أعيان المملكة الذين شملتهم الوثيقة، وهم: الملك سرير في جزيرة الشاطراب، والملك أرباب النور بن عايد في منطقة أمبكول[50]، والملك محمد دار موسى على الضفة الشرقية لمملكة الدُّفَّار، والملك الحتاني على الغربية، والملك بشير الخندقاوي في الخندق.[51] ويعلِّق الرحالة كايو على الواقع الذي فرضته سيطرة الشايقية على المنطقة بقوله: "بعد زوال مملكة سنار، أصبح الشايقية جبابرة في نظر جيرانهم، وقد عانى أهالي دُنْقُلا وبربر والحلفاية ما عانوه على أيدي هؤلاء القوم الجسورين، قوم نشأوا محاربين نساءً ورجالاً."[52] ويؤكد محمد عبد الرحيم أن حالة عدم الاستقرار التي أفرزتها غارات الشايقية في المنطقة قد أسهمت في القضاء مملكة الدُفَّار[53]، وتشتيت أهلها في القرى الواقعة على ضفتي النيل مثل قنتي ومنصوركتي وحسينارتي وأمبكول، والعفاض وكوري ومورا، بينما هاجرت بعض الأسر إلى كردفان ودارفور والجزيرة.

---

(49) نقلاً عن و. نكولز، **الشايقية**، 18-19.

(50) هو الملك أرباب النور بن عايد، والد الملك موسى الذي وُلِدَ بقرية أمبكول عام 1744م، ووصفه محمد عبد الرحيم قائلاً: "كان موسى من أشهر أبطال القرن الثاني عشر [الهجري]، وله مواقف تدل على الشهامة، وعدم المبالاة بالحياة، وهو الذي ظاهر الشيخ عكود السورابي، وطعن الملك صبير بين جمهرة من رجاله، ولولا أن تداركت صبير المعونة الإلهية لأودت الطعنة بحياته." محمد عبد الرحيم، "مخطوط أبطال السُّودان"، مجموعة محمد عبد الرحيم، دار الوثائق القومية بالخرطوم.

(51) مخطوط بخط الخواجة يوسف خير حبيب والخواجة إبراهيم باذ، جامعة بيرقن، مركز دراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، (Arabic Mss., File 1, acc. No. 190)

(52) نقلاً عن و. نكولز، **الشايقية**، 21.

(53) محمد عبد الرحيم، **النداء في دفع الافتراء**، القاهرة: مطبعة البرلمان، 1952م، ص 27. ولكن و. نكولز يقدم رواية مخالفة، إذ يرى أن المعركة الثانية وقعت بالقرب من جبل داقر على الحدود الفاصلة بين البديرية والشايقية، وهزمت فيها جيوش ملك أرقو وأنصاره، وقتل فيها خلق كثير، وعلى أثر ذلك اشتدَّ نفوذ الشايقية في منطقة دُنْقُلا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي. وفي مخطوط أبطال السُّودان يقول المؤلف محمد عبد الرحيم في ترجمته للشيخ مسند بن أنصاري بن مسند بن جبريل الفونجاوي (ت. 1785م)، إنَّ مسنداً كان قوياً جباراً، عيّنه حاكم سنار حاكماً لدُنْقُلا، فوجد البلاد فوضى من جراء غارات الشايقية، خاصة بلاد البديرية، ومما اضطر الحاكم مسند إلى التراجع حتى بلدة أكَّد شمال الحفير، تاركاً بلاد البديرية نهباً للشايقية، مما اضطرهم إلى التجمع من الغُرَيْبَة، وكُورتي، والدُفَّار، وتنقسي في قرية أكَّد، ومن هناك ساروا لمنازلة الشايقية في جواري، حيث دارت المعركة، انهزم فيها الشايقية، ومنوا بخسائر فادحة؛ فتدخَّل الفقيه جاويش الشايقي المكنى بالصقر أبو ريش، والفقيه ولد حاج نور الدويحي، فأصلحا بين الشايقية والبديرية والشيخ مسند، واتفقوا أن يكون الحدَّ الفاصل بين البديرية والشايقية بلدة الباسا، وغرسوا حجراً ضخماً ظلَّ موجوداً حتى الأربعينيات من القرن العشرين.

التركيبة الديمغرافية والتمازج الاجتماعي

تشكلت التركيبة السكانية لدار البديرية من البديرية، والركابية، والفونج، والطريفية، والشايقية، وبعض الهواوير والكبابيش الذين استوطنوا في المنطقة وآثروا الحياة في ربوعها. وقد حدث بين هذه المجموعات القبلية تمازج اجتماعي، وثق عرى ترابطها الإنساني، وجعلها أكثر تجانساً من الناحيتين الاجتماعية والثقافية، مع تشابه كبير في سبل كسب العيش. ومن العوامل التي أسهمت في ذلك المصاهرات العبارة للاثنيات التي وسَّعت دائرة التمازج الاجتماعي والثقافي، وربطت المنطقة بمحيطها الخارجي. ومن أولى المصاهرات التي وضعت لبنات التواصل الأولى بين البديرية والركابية زواج محمد بن دهمش من السيدة عالية بن غلام الله بن عايد الركابي التي انجبت ابنه الملك صلاح الشهير بسالا،[54] وفتحت هذه المصاهرة الباب إمام العديد من المصاهرات الأخرى التي حدثت بين البديرية والركابية، معضدةً التداخلي الجيني بين الطرفين، لدرجة يصعب فرز مكوناته؛ ولذلك نلحظ أن الأديب الطيب صالح (ت. 2009م) عندما كان يُسأل عن أصله، يميل إلى تعريف نفسه بأنه "بديري-ركابي". ونذكر أيضاً زواج محمد بن عيسى بن صالح البديري، الشهير بسوار الذهب، من بنت الملك حسن ولد كشكش، الذي يصفه صاحب الطبقات بآخر ملوك دنقلا المتوجين، ونتج عن هذه المصاهرة إنجاب ابنه حلالي، الذي "بلغ مبلغاً في العلم والدين والصلاح، [...] وفاق جميع إخوانه، وتولى القضاء مثل أبيه، وحكم بالمتفق عليه."[55] ولا جدال في أن الشيخ حلالي بن سوار قد ورث العلم من والده الذي يتمنى أهل دنقلا بلوغ منزلته في العلم، وذلك بقولهم: اللهم أزرقنا: "علم ولد عيسى."[56] ويأتي في السياق نفسه، زواج الشيخ أحمد بيلي، الذي قدم من بيله شرقي مكة المكرمة إلى السودان عام 1526م، وأخيراً استقر به المقام في جزيرة التُلبُناب بدار الشايقية، وفيها تزوج ابنة الشيخ سراج ولد مالك الركابي، وأنجب ابنه عووضة، الجد المؤسسة لأسرة البيلياب بمنطقة منصوركتي. ويقال إن الشيخ أمباب حمد بن الشيخ عووضة قد درس القرآن على والده الشيخ أحمد بيلي، ثم بعد ذلك تفقه في المذهب المالكي عند أولاد جابر.[57]

---

[54] يقول العجيمي: "جاء في الصحايح التاريخية في العهود السنارية أنه "[أي محمد بن دهمش] تزوج ببنت السيد غلام الحسيني، وولد منها ولي عهده وخليفة سجادته الذي بويع من بعده، وهو ابنه السيد صلاح الشهير بسالا، وهي كلمة رطانة معناها صلاح. كان رضي الله تعالى عنه من الأولياء الكبار، وقبره إذاً في القبة التي بقرب دنقلة يزار، وهو جد جميع السادة الدهمشية الذين هم بدنقلة والنازح القليل منهم إلى غيرها. انظر: محمد علي العجيمي، **جواهر الأصول**، ص 83. كما أشار إلى ذلك عون الشريف قاسم، **موسوعة القبائل الأنساب**، ج 4، 1723، نقلاً عن مخطوط القاضي أحمد البدوي.

[55] محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 182-183.

[56] المصدر نفسه، 154.

[57] حمد عبد الرحمن حمد البيلي، **سلف البيلياب وأصهارهم من أعيان الأعراب**، الخرطوم: شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، 2009م، ص: 35-39؛ عون الشريف قاسم، **موسوعة القبائل والأنساب**، ج 1، 352-354، ج 2، 676-677. اختلفت الروايات التاريخية

علماء دار البديرية: الكسب والعطاء

ارتبط تأثير علماء دار البديرية داخل موطنهم الأصل وخارجه باتجاهين، أحدهما جاذب والآخر رافد. ونقصد بالاتجاه الجاذب دور خلاوى القرآن التي أُسست في المنطقة، ثم أسهمت في تمكين الوعي الديني المعرفي، الذي جذب إليها طلبة العلم الذين درسوا القرآن والفقه في رحابها. كما نقصد بالاتجاه الرافد العلماء والمتعلمون الذين درسوا في خلاوى ومساجد دار البديرية، ثم هاجروا منها إلى بقاع أخرى من السودان، حيث أرسوا دعائم العلم، ونذكر منهم الغبش في ببربر، والإسماعيلية في الأبيض، والدواليب في خُورسي، وآل حمد النحلان في وسط الجزيرة.

الاتجاه الجاذب

إنَّ قول محمد النور بن ضيف الله: "أعلم أنَّ الفونج ملكت أرض النوبة، وتغلبت عليها أول القرن العاشر [الهجري ...]، ولم يشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن. ويقال إنَّ الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عِدَّة، حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر، وعلّم الناس العِدَّة، وسكن البحر الأبيض، وبنى له قصراً، يعرف الآن بقصر محمود"[58]، فيه تعميم مخل، يحتاج إلى توضيح؛ لأن أرض النوبة التي أشار إليها ود ضيف الله لم تكن في حالة جهل مطبقة بأحكام الإسلام. وهناك جملة من الشواهد التي تدحض هذا الزعم. أولاً، إنَّ الشيخ حاج بلول بن الفقيه أحمد في منطقة الغابة (عرب نارتي) قد نسخ مصحفاً بخط يده في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، أي قبل قيام سلطنة الفونج (1504م)، وقدوم الشيخ محمود العركي إلى السودان (1550م) بنحو مائة عامٍ أو يزيد.[59] ووثق لذلك بقوله: "تمَّ الفراغ منه [أي كتابة المصحف] في يوم الأحد عاشر شوال سنة سبعين وثمانمائة، وكان الابتداء فيه يوم الأربعاء مستهل رمضان من السنة المذكورة، وفرغتُ من تبييضه يوم الأربعاء سادس صفر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة. كاتبه

في تحديد المكان الذي قدم منه الشيخ أحمد بيلي إلى السودان، فبعضها أرجعه إلى بيلة بصعيد مصر، وبعضها إلى بيل باليمن قرب صنعاء، وبعضها إلى بيلة في نواحي مكة المكرمة.

(58) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 39-40.

(59) يقال أنَّ الشيخ محمود العركي قد درس الشيخ الناصر اللقاني والشيخ شمس الدين اللقاني، وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ بن عطاء الله السكندري، ثم عاد إلى السودان عام 1550م، وأقام العديد من الخلاوى؛ لتدريس القرآن في المنقطة الواقعة بين ديم أليس شرق النيل الأبيض ومقرن النيل الأبيض والأزرق، ويقال إنه من أوائل العلماء والفقهاء الذين اعلموا الناس ببعض أمور دينهم الحياتية. لمزيد من التفصيل انظر، محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 344؛ عون الشريف قاسم، **موسوعة القبائل الأنساب**، ج 5، 1549.

ومالكه، الفقير إليه حاج بلول بن الفقيه أحمد."[60] فكتابة المصحف في تلك الفترة "تُعْدُّ مرحلة متقدمة في تعليم القرآن الكريم"، وتدل على انتشار المعرفة القرانية في تلك الربوع.[61] ثانياً، إنَّ خلوة الغُريْبَة التي أسسها الشيخ علي حاج بلال عام 888هـ/1483م، تؤكد انتشار المعارف القرآنية في المنطقة؛[62] وتشكك في افتراض الجهل الكامل بأساسيات الأحكام الشرعية. ثالثاً، إنَّ هجرة الشيخ غلام الله بن عايد إلى دنقلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر (870هـ/1466م)، تعكس دور المنطقة الباكر في تدريس القرآن والاحتفاء بالعلماء والفقهاء.[63] ويضاف إلى ذلك قول إبراهيم ولد عبد الدافع أنَّ أبناء غلام الله بن عايد، والشيخ إدريس ود الأرباب، والشيخ حمد ولد زروق الحضرمي قد درَّسوا القرآن ومبادئ الفقه في الجهة الشرقية (الجزيرة والنيل والأزرق) قبل مجيء الشيخ محمود العركي إلى السودان،[64] ولذلك يعتقد الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد أنَّ منطقة النوبة السفلى قد سبقت مناطق السودان الأخرى في كسبها المعرفي؛ وعليه لا يجوز وصفها بالجهل بتعاليم الدين وأحكامه قبل ظهور الشيخ محمود العركي.[65]

تدفعنا هذه الملحوظات إلى التثبت بأن دار البديرية كانت من المناطق الرائدة في تعليم القرآن والفقه والتصوف، والشاهد في ذلك إسهامات الشيخ محمد بن عيسى بن صالح البديري، الشهير بسوار الذهب، الذي درس الفقه المالكي (رسالة أبي زيد القيروان ومختصر خليل) على والده؛ والعقائد والمنطق وعلوم القرآن وأدبيات التصوف على الشيخ محمد بن علي قرم الكيماني المصري الشافعي.[66] وبعد أن تفقه في المعارف الإسلامية، خلف والده في التدريس بخلوة السواراب بدنقلا العجوز، ودرس على يديه جمهرة من العلماء البارزين، ونذكر منهم: ابنه الشيخ حلالي الذي "بلغ مبلغاً في العلم والدين والصلاح" فاق والده، وجميع إخوانه، كما تولى القضاء مثل أبيه، وحكم بالمتفق عليه، وكان يفضل الصلح في القضايا المدنية.[67]

---

(60) الطيب محمد الطيب، **المسيد**، الخرطوم: هيئة الخرطوم للصحافة والنشر، 2010م، ص: 131-132. تعادل سنة 870 هجرية 1466 ميلادية.

(61) سمير محمد عبد نقد، **غلام الله بن عايد**، 92.

(62) الطيب محمد الطيب، **المسيد**، 131-132.

(63) سمير محمد عبيد نقد، **غلام الله بن عايد**، 99.

(64) إبراهيم ولد عبد الدافع، **تاريخ ملوك السودان وأقاليمه**، مخطوط، ص: 4. نقلاً عن عبد العزيز أمين عبد المجيد، التربية النفسية في السودان، ص: 88-89.

(65) عبد العزيز أمين عبد المجيد، **التربة في السودان والأسس النفسية والاجتماعية التي قامت عليها**، القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع، 2014م، 88-91.

(66) يقول عنه محمد النور بن ضيف الله: "محمد بن علي قرم الكيماني المصري الشافعي. أخذه العلم من الخطيب الشربيني. دخل بلاد بربر في أول مُلك النفج، ودخل مدينة أربجي سنة أم لحم. ودخل سنار، ثم توطن ببربر إلى أن توفي بها. والشيخ محمد بن قرم فهو آية الله؛ لأن جميع الشيوخ أخذت منه علم الفرايض، كالشيخ عبد الله العركي، والقاضي دشين الشافعي، والشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو، والشيخ إبراهيم الفرضي، والشيخ جويدة صاحب المنظومة، والشيخ محمد المصري على خلاف فيه." محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات** ص 353-354.

(67) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 182-183.

ويأتي في المرتبة الثالثة حفيده الشيخ زيادة بن النور، الذي خلف عمه الشيخ حلالي في التدريس والقضاء، وأفلح في استثمار الجاه الذي أوقفه السلطان بادي بن رباط (1615-1643م) إلى جده الشيخ محمد بن عيسى في العلم والتعلم الإسلامي. وفي عهد الشيخ زيادة عمرت حلقات القرآن عماراً شديداً إلى أن خلفه ابنه أحمد في أداء مهامه التدريسية والقضائية.[68] بهذه الكيفية تناسلت عملية العلم والدين والصلاح في أفراد أسرة سوار الذهب، التي أسهمت في تأهيل نخبة من العلماء البارزين أمثال: "الشيخ عيسى ولد كنو، وعبد الله الأغبش والد الغبش في بربر، ونصر الترجمي والد الفقيه أبو سنينة شيخ أربجي، والفقيه عبد الرحمن أبو ملاح والد الشيخ خوجلي." وبعض الأولياء والصالحين الذي أخذوا طريق القوم من الشيخ محمد عيسى سوار الذهب، أمثال: "الشيخ عووضة ود شكال القارح، والحاج عبد الله راجل قري، وعبد الرحيم بيَّاع المطر، والفقيه محمد ولد العباسي راجل وهيب، وأنقاوي، والفقيه حمد ولد أبو حليمة الركابي، راجل شراو."[69]

ويمثل المركز الثاني خلوة الغُرِيْبَة التي أسسها الشيخ علي بن الحاج بلال عام 888هـ/1483م، ثم شيد بالقرب منها مسجد جامع، وسكن لطلبة العلم الذين كانوا ولا يزالوا يأتون إليها من كل بقاع السودان المختلفة وخارجه. وتدريجياً أحاطت منازل أهل القرية بالخلوة من كل الجهات، ثم برزت قبة الشيخ علي بن الحاج بلال شامخة في صعيدها.[70] تعاقب على إمامة المسجد وإدارة الخلوة أكثر من أربعة عشر شيخاً، ابتداءً من الشيخ المؤسس الشيخ علي بن الحاج بلال وانتهاءً بالشيخ أحمد عبد الرحمن محمد خير. ثمانية منهم درسوا في خلاوى مختلفة داخل حدود السلطنة الزرقاء، وتخرج على أيديهم عدد كبير من الحفظة والفقهاء الذين أسهموا في حمل مشاعل التنوير المعرفي في دنقلا وجزيرة الفونج.[71] ويوجد بخلوة الغُرِيْبَة، حسب رواية الطيب محمد الطيب، مخطوط لمختصر خليل، قد أكمل نسخه الشيخ محمد بن سراج الدين بن الشيخ علي بن الحاج بلال "في يوم الثلاثاء من شهر شوال سنة 972هـ [/1565م]"، ونذره "وقفاً لإخوانه وأبنائه أبناء الشيخ علي الحاج بلال."[72] ولا اعتراض في أن هذا المخطوط يؤكد عراقة خلوة الغُرِيْبَة، ودورها في تدريس القرآن والفقه على المذهب المالكي.

أما المركز الثالث، فقد ارتبط باسم الشيخ عبد الرحمن بن جابر، الذي درس الفقه على أخيه إبراهيم بن جابر البولاد وعلى الشيخ مُحَمَّد البَنَوْفَرِيّ[73] في القاهرة. وبعد عودته إلى دنقلا "جلس للتدريس والفقه وسائر الفنون"، وبلغت ختماته في مختصر خليل أربعين ختمة في السنة، حيث كان يدرس أربعة أشهر

---

(68) المصدر نفسه.

(69) المصدر نفسه.

(70) الطيب محمد الطيب، **المسيد**، 182-189.

(71) قيصر موسي قيصر موسي الزين، **انتشار الاسلام والسلطنات**، مركز محمد بشير عمر جامعة أمدرمان الاهلية، 1998م، 38-70.

(72) الطيب محمد الطيب، **المسيد**، 122.

(73) هو الشَّيْخ شمس الدين مُحَمَّد البَنَوْفَرِيّ المالكي شيخ الْمَالِكِيَّة بمصر، توفي في أواخر القرن العاشر الهجري، وهو أحد تلاميذ الشيخ علي الأُجْهُورِيّ.

في مسجد أولاد جابر بدار الشايقية، وأربعة ثانية في مسجد كورتي، وأربعة ثالثة في مسجد الدُفَّار[74]. وبفضل براعته في التدريس بلغ أربعين تلميذاً من تلاميذه درجة القطبانية في العلم والصلاح، وذكر ود ضيف الله منهم: الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي، والشيخ عبد الرحمن بن مشيخ النويري، والشيخ يعقوب بن الشيخ بان النقا الضرير، والشيخ المسلمي ولد أبو ونيسه، والشيخ لقاني الحاج خال الشيخ حسن ولد حسونة، والشيخ عيسى بن الشيخ محمد بن عيسى سوار الدهب، والشيخ إبراهيم ولد رابعة بحجر العسل.[75] وتخرج على يديه عدد كبير من الطلبة النجباء الذين أسهموا في توسيع دائر التعليم الديني على المستويين المحلي والإقليمي. وكان خريجو مدرسة عبد الرحمن بن جابر يحصلون على إجازات علمية تأهلهم للعمل في مجال التدريس والقضاء والافتاء، ونذكر من تلك الإجازات العلمية، الإجازة التي منحها الشيخ عبد الرحمن بن جابر إلى إبراهيم ولد أم رابعة، بنصها الآتي:

> "الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين. أما بعد أن الأخ الفقيه الشيخ المحترم، المتأدب، المتواضع، الشيخ إبراهيم ابن أم رابعة، استحق السيادة والإمامة عندي، فجعلته قطباً في مكانه ولساناً في عصره وترجماناً في أوانه، ومربياً للمريدين، وقدوه للمسترشدين، وملجأً للفقرا والمساكين، ومظهر شمس المعارف بعد غروبها، فأذنته في كل ما حققه ونقله وسمعه منى أن يفشيه ويعلمه الناس، وقد أذنت له بإشهارها وإشهار ما فيها، وتشييع ما أشرنا إليه

---

(74) يقول البدوي محمد نافع في مخطوطه الموسوم بـ "كتاب في ذكرة السيد غلام الله ابن عايد وذكرة أولاد جابر وذكرة ذرية السادات الركابية ومن تنسل منهم والمساجد التي عملت من ذريتهم بالسودان": السيد إبراهيم البولاد "هو أحد أبناء السيد جابر الأربعة، وهو السيد إبراهيم بن السيد جابر سلالة السيد غلام الله، وعند حضوره من مصر عند الملك موسى العباسي أن الملك موسى طلب من الأزهر شيخاً يعلم الناس دينهم فأشار شيخ الأزهر إلى إبراهيم بن جابر، وعند حضور السيد إبراهيم البولاد للملك موسى وجد الناس في فترة تدهور في تعاليم الدين بسبب الحروب، وقد جهل آنذاك قواعد الشريعة، ولم يجدوا أحداً يبين ما يرثه الرجل والمرأة، ويوضح له أركان الإسلام. فقام السيد البولاد بإرشاد الناس وتعليمهم أمور دينهم... وقد وضع السيد المذكور مسجداً بقرية ملك الدُفَّار قصاد قنتي شرقاً، وعند بناية المسجد وضع فيه خمسة أعمدة حذواً بقواعد الإسلام، ولا تزال آثار المسجد موجودة بالدُفَّار على مآثر مملكة البديرية. وصار ملوك الشايقية يحضرون لاستماع الدروس والارشادات التي كانت توجه إليهم من داخل المسجد، وكان الشيخ البولاد يوصل العلم إلى الذهاب بالطريقة العلمية، فكان كلما تكلم عن ركن من أركان الإسلام يجلس في كل عمود من عمائد المسجد لتوضيح أركان الإسلام الخمسة من الشهادتين إلى الركن الخامس حج بيت الله الحرم." انظر البدوي محمد نافع، ص 20-21. يبدو أن هذه الرواية غير دقيقة؛ لأن إبراهيم ابن جابر البولاد أسس خلوته في جزيرة ترنج بديار الشايقية، وأن الوحيد من أولاد جابر الذي درس بمسجد الدُفَّار هو عبد الرحمن بن جابر حسب وراية صاحب الطبقات. ومن الشواهد المؤيدة لذلك يقول ود ضيف الله عن الشيخ إبراهيم بن جابر: "ودخل إلى مصر وتفقه بسيدي الشيخ محمد البنوفري، وأخذ الفقه والأصول والنحو. ثم رحل إلى ترنج ودرس خليل والرسالة..." لمزيد من التفصيل، انظر: محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 45-46.

(75) محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات، 251.

من أطلع عليها ما فيها أو بلغه شيء من ذلك فليحذر كل الحذر من خراب الباطن. بتاريخ اثنتين وثمانين وتسعماية من الهجرة النبوية."[76]

علَّق الدكتور عثمان السِّيد على هذه الإجارة بقوله إنها تصلح أن تكون:

"دستوراً للحركة العلمية، وآية ذلك أن هدف التعليم ليس فقط التأهيل لنيل حرفة، أو إشباع التطلعات الذاتية للدارس، أو حشو المعلومات في ذهن الدارس، ليُعدُّ في طائفة المثقفين، وهذا ما يطلق عليه حديثاً مصطلح التربية المصرفية. وهي تربية عقيمة وجامدة، يكون التلميذ فيها خاملاً وبلا نشاط، ومجرد مستودع للمعلومات. أما التربية الواردة في إجازة الشيخ عبد الرحمن، فتهدف لإعداد الدارس؛ ليكون مربياً لغيره، والشاهد أنَّ التربية عملية شاقة وصعبة، وتحتاج لخبرة ومراس وصبر، كما يجب أن يكون المعلم قدوة، إذ لا كبير طائل لقول من غير عمل. ومفهوم القدوة مفهوم محوري في التعليم الإسلامي؛ لأن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل. ولأن القدوة الحسنة تحرك خصال الخير في النفس البشرية، وتقضي على نوازع الهوى، وتعطي العبارة الأخيرة: (ملجأ للفقراء والمساكين) المدلول الاجتماعي لحركة التعليم الإسلامي، فليس هدف التعليم خلق طبقة متعالية ومنعزلة عن سواد الشعب، وإنما هدف التعليم إعداد الكوادر القادرة على الاستجابة لاحتياجات الجماعات الضعيفة، والمعرضة لنوازل الطوارق الاجتماعية، فهؤلاء أحق الناس بالرعاية والاهتمام. ولعل هذه العبارة تصلح لأن تكون دستوراً لحركتنا التعليمية المعاصرة."[77]

وإلى جانب هذه المراكز التعليمية الثلاثة نشأت مراكز أخرى لتدريس القرآن، ولكنها أقل عطاءً منها، ونذكر منها خلوة البيليات التي أسسها الشيخ عووضة بن أحمد بيلي الحجازي (ت. 1718م)، الذي حفظ القرآن على والده بجزيرة التُلبُناب في ديار الشايقية[78]، ثم واصل تعليمه في خلاوى أولاد جابر، وسلك

---

(76) يرجع نسب إبراهيم ولد أم رابعة، الذي ولد بحجر العسل، إلى التكجاب، وهم فرع من السعداب الجعليين، يسكنون جزيرة أم حراحر بين سلوة وأم طريفة، أخذ العلم من الشيخ عبد الرحمن بن جابر، ويعد من تلاميذهم الأربعين الذين بلغوا درجة القطبانية في العلم والصلاح. لمزيد من التفصيل انظر ترجمته في: محمد النور ود ضيف الله، **كتاب الطبقات**، ص: 104.

(77) عثمان السيد، "دنقلا: أقدم وأهم المراكز الريادية للانبعاث السناري في سودان وادي النيل، 1504-1821م"، 9 ديسمبر 2009م، http://roya-resala.blogspot.qa/2009/12/blog-post_4315.html، استشارة: 11 أغسطس 2017م.

(78) هو الشيخ أحمد بيلي بن محمد بن حامد بن إدريس بن عبد الله بن محمود بن أحمد بن صالح بن حاكم، وينسب إلى أرض بيله الواقعة شرقي مكة المكرمة. تقول الروايات التاريخية أنه وفد من مكة المكرمة إلى السودان، ونزل أولاً ببلدة شندي بدار الجعليين، ثم واصل سيره شمالاً إلى أن حط رحاله بدار الشايقية، حيث أقام بجزيرة التُلبُنات المقابلة لتنقاسي، مدرساً للقرآن والفقه. وبعد وفاته دُفن جثمانه

الطريقة القادرية. وبعد ذلك انتقل إلى قرية فقيرنكتي، حيث منحه الشيخ بشارة بن علي برسي، الشهير ببشارة الغروباي، قطعة أرض، أقام عليها مسيداً بالقرب من شاطي النيل؛ لأداء الصلوات الجامعة وتدريس القرآن والفقه، وقبل وفاته رُحِّل المسيد (المسجد) إلى موقع مجاور إلى مسجد فقيرنكتي الحالي. ومنذ ذلك التاريخ ظل مسيد البيليات منارة من منارات العلم؛ المشهود لها بالكفاية في تدريس القرآن والفقه وعلومهما بالمنطقة.[79]

الاتجاه الرافد

أول من يمثل هذا الاتجاه الشيخ عبد الله الأغبش بن محمد ماجد الشهير "بكندمر"، والذي درس القرآن على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب، والفقه المالكي على أولاد جابر، وبعد ذلك ارتحل إلى بربر القديمة (المخيرف)، حيث شيد مسيداً وخلوةً لتدريس القرآن والفقه المالكي[80]. وبعد وفاته خلفه ابنه وتلميذه حمد، الذي درس الفقه على الشيخ عبد الرحمن بن حمدتو، ثم تفرغ لتدريس القرآن والفقه وبرع فيه؛ لدرجة ارتقت بمسيد الغبش ليكون منارة معرفية بارزة في المنطقة.[81] وبعد وفاته خلفه ابنه الفقيه عبد الماجد، الذي قال فيه صاحب الطبقات:

> "حفظ القرآن على أبيه حمد [بن الرحمن الأغبش]، وقرأ مختصر خليل على الفقيه شيخ اللعسر. ودرّس بعد أبيه حمد، وطال عمره، واشتهر ذكره. وأخذ عليه الأبناء والآباء والأحفاد والأجداد، ومدة خلافته خمسون سنة. كان ممن جمع بين العلم والعمل؛ وإتباع الكتاب والسنة؛ لا تأخذه في الله لومة لايم. [...] وكان رضي الله عنه له هيبة شديدة، وفي آخر عمره، الإنسان ما يقدر يفوت بوجهه. والحلقة في زمانه بلغت ألفاً [...] وممن حفظ عليه الكتاب من الأعيان الفقيه مكي ولد سراج المجذوب، والفقيه ولد أبو عصيدة، والفقيه سميح التميرابي، وأولاده سعد: محمد وحماد، ونحو ذلك، يبلغون الألف، أو يزيدون."[82]

وخلف الفقيه عبد الماجد ابنه وتلميذه الشيخ حمد، الذي واصل مسيرته في التدريس بعناية فائقة، وأخذ العلم منه جملة من المشاهير، نذكر منهم الشيخ حمد ولد المجذوب، الذي "تفقَّه في خليل والرسالة على

بمقابر محمد ود عدلان، بجوار سوق الثلاثاء بتنقاسي من الجهة الجنوبية. وقبل وفاته أوصى الشيخ أحمد بيلي ابنه عووضة بمواصلة تعليمه في خلاوى أولاد جابر بالضفة اليمنى للنيل. حمد عبد الرحمن حمد البيلي، **أسلاف البيليات**، 32-35.

(79) حمد عبد الرحمن حمد البيلي، **سلف البيليات**، ص 35-41.

(80) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 279.

(81) المصدر نفسه، 153.

(82) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 279-280.

الفقيه محمد بن مدني بن محمد، وعلى القراري، وعلم الكلام على الحاج سعد، وحج إلى بيت الله الحرام، وسلك الطريق على الشيخ علي الدَّراوي، تلميذ سيدي أحمد بن ناصر الشاذلي. وانتصب للتدريس في جميع الفنون والفتاوي والأحكام، والسلوك في طريق القوم عجبا من العجب، والزهد والذكر، وملازمة دلايل الخيرات، والقيام بمصالح المسلمين، واعطاه الله القبول التام عند الخاص والعام، وكان كثير الشفاعة عند الملوك والسلاطين [...]، لاترد له شفاعة، من ردَّه ينكب سريعاً."[83]

وبرز أيضاً من علماء الغبش في بربر، الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حمد الأغبش الذي حفظ القرآن على أبيه حمد، وقرأ أحكام القرآن [في] الخرازي والجزرية على الفقيه عيسى ولد كنو، وألف كتباً مرجعية في أحكام القرآن، ونذكر منها: "نظم الهداية" و"تحفة الهداية". ومن الفقهاء الأجلاء الذين نهلوا العلم منه الشيخ عبد العاطي راجل العطشان، والفقيه عمر المحسي راجل عصيبة، والفقيه عبد الرازق ولد التويم العوضي، والفقيه عبد القادر الهلالي ولد الدبة، والفقيه حمد ولد مدلول.[84] ثم يأتي في المرتبة التالية له ابنه الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأغبش، الذي تفقه "على الفقيه بلال، والفقيه أبو الحسن؛ وأخذ علم التوحيد عن الفقيه بساطي، وفرح بن الفقيه أرباب، والرسالة عن الفقيه عبد الصادق ولد حسيب، وأحكام القرآن عن أبيه الفقيه عبد الرحمن" ... بن حمد الأغبش. وقد برع الشيخ محمد في تدريس القرآن وأحكامه، ودرس عليه "خلايق لا تحصى كثيرة"، ومن خريجي خلوته "الفقيه حمد ولد مدلول، والفقيه مسكين، والشنباتي، والفقيه مدني أخاه." يصفه صاحب الطبقات بأنه قد "جمع بين العلم والعمل، والورع والزهد، والانقطاع إلى الله تعالى."[85]

ظل هذا العطاء المعرفي في حركة تراكمية مستمرة في أحفاد الشيخ عبد الله الأغبش[86]، ولم يتوقف إلا في عهد المهدية (1881-1898م)، عندما أعلن الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي، أحد أعلام أسرة الغبش البازين وأستاذ محمد أحمد عبد الله (المهدي لاحقاً)، الجهاد على الحكومة التركية، مسانداً دعوة الإمام المهدي.[87] وتوضح هذه النماذج المختارة من تراجم علماء الغبش كيف تناسل العلم فيهم جيل عن جيل، وكيف كان ذلك العطاء المعرفي منداحاً للناس أجمعين، عبر حلقات العلم الدائمة في خلاويهم، ومخطوطاتهم في التجويد والفقه وأحكام القرآن التي اكتسبت صفة مرجعية في المنطقة. ويؤكد ذلك قول الشيخ السماني ود فزع لمحمد أحمد بن عبد الله (المهدي لاحقاً) عندما التقى به في بربر وهو في طريقه للدراسة

---

(83) المصد نفسه، 187-188.

(84) المصد نفسه ، 280.

(85) المصد نفسه ، 358.

(86) بعد وفاة الشيخ عبد الله الأغبش خلفه ابنه الفقيه حمد، ثم الفقيه عبد الماجد ولد حمد، ثم الفقيه حمد ولد عبد الماجد، ثم الفقيه محمد ولد حمد ولد الفقيه عبد الماجد، ثم الفقيه خوجلي ولد محمد، ثم الفقيه محمد ولد خوجلي، ثم الفقيه الأمين ولد محمد، الذي في عهده اندلعت الثورة المهدية. انظر الطيب محمد الطيب، **المسيد**، ص 228.

(87) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 358.

في مصر: "إنَّ الشيخ محمد الخير [عبد الله خوجلي] له إلمام تام بعلم الفقه وتدريسه، وأنه واسع الاطلاع، وإن الانضمام إلى مجلسه يغني عن السفر إلى مصر."[88] ولذلك كانت خلاوى الغبش في بربر آخر محطات (1864-1867م) محمد أحمد بن عبد الله في دراسة العلوم النقلية والعقلية، قبل أن يعلن مهديته في الجزيرة أبا عام 1881م.

ويأتي في المرتبة الثانية بعد الغبش في بربر، الدوليب في خُورسي في ولاية شمال كردفان، والذين يتفرعون من الركابية أحفاد الشيخ غلام الله بن عايد، وينسبون إلى جدهم المؤسس الشيخ محمد دوليب المشهور بمحمد الضرير بن إدريس بن دوليب نسي بن محمد كري بن تركي بن عريبي بن حماد بن حاج عبد الله بن ركاب بن غلام بن عايد"، الذي جمع بين العلم والعمل، واشتغل بتدريس القرآن والفقه، وكانت له "مكتبة عظيمة تناقلت الركبان أخبارها."[89] وأنجب الشيخ محمد من الأبناء عبد الهادي جد دواليب الحلفاية والكدور، ومحمد صغيرون جد دواليب خُورسي وبارا. وبعد هجرتهم من دبة الفقراء بالولاية الشمالية سكن محمد صغيرون وأفراد أسرته في بادي عهدهم بمنطقة جبل الحرازة في شمال كردفان،[90] ثم انتقلوا منها إلى خُورسي، حيث وُلد الشيخ محمد دوليب الصغير بن إدريس بن محمد صغيرون بن عبد الهادي بن محمد دوليب الكبير، وحفظ القرآن بخلوتها، ودرس العلوم النقلية والعقلية من تفسير وحديث وفقه وأصول وبيان على يد الشيخ الأزهري محمد بارقوم البرناوي، وبعد أن استقام عوده في العلوم النقلية والعقلية تحول من الطريقة القادرية إلى الطريقة التجانية، وحدث ذلك التحول بإرشاد من الشيخ سعيد بن محمد الأمين المغربي الفاسي، المشهور بمولود فال، الذي حضر في زيارة خاصة إلى خورسي، لتنصيب الشيخ محمد دوليب بإجازة، يقرأ نصها هكذا:

> "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي جعل الأولياء باب الفوز والنجاة، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الإرسال الهداة، وعلى آله وصحبه، وجميع من تبعه على الإحسان والتقاة، أما بعد: فليعلم الواقف على هذه الورقة أني قد أجزت أخي وحبيبي في الله السيد العالم الأجل، الأديب الحي التقي الوقور، المحسن المتفضل الأنبل اللبيب، حاوي الكرم والجود، ومعدن الأمانة وتوفية العهود، الشيخ الإمام محمد الخليفة في استعمال الطريقة التجانية المثلى، وفي تلقينها لكل من التزمها منه، وبعد التزام الشروط. وقد أخذتها أيضاً من الشيخ العالم العلامة محمد التونسي في المسجد الحرام، وهو أخذها عن الشيخ العالم

---

(88) محمد سعيد القدال، **الإمام المهدي. محمد أحمد المهدي، 1844-1885م. لوحة لثائر سوداني**، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1985م، ص 36. نقلاً عن علي المهدي، **مذكرات على المهدي** (تحقيق عبد الله محمد أحمد حسن: جهاد في سبيل الله)، ب.د. 3.

(89) الطيب محمد الطيب، المسيد، 335.

(90) المرجع نفسه، 335-337.

العلامة إبراهيم الرياحي، وهو أخذها عن الشيخ التجاني رضي الله عنه وعن الجميع. الفقير إلى الله الغني عن كل ما سواه سعيد بن محمد الأمين المغربي الفاسي." [91]

هكذا أضحت خورسي موطناً للدواليب، ومراكزاً مهما لتحفيظ القرآن وتدريس الفقه، حيث درس فيها آلاف التلاميذ من بقاع السودان المختلفة. وفي عهد الشيخ محمد دوليب الصغير قامت بدور رائد في نشر تعاليم الطريقة التجانية، وواصل ذلك الدور من بعده ابنه الشيخ الدرديري (ت: 1257هـ/1841م)، ثم حفيده الشيخ جعفر الدرديري (ت: 1288هـ/1871م)، وأخيه الشيخ الدسوقي الدرديري (ت: 1401هـ/1981م)، وظلت خلافة هذه الطريقة متوارثة في أسرة الشيخ محمد دوليب إلى أن توالها الشيخ جعفر الدسوقي الدرديري بعد وفاة والده عام 1981م.[92]

وتأتي في المرتبة الثالثة أسرة الإسماعلية التي هاجر والد شيخها المؤسس، الشيخ عبد الله بن إسماعيل بن عبد الرحيم بابا بن الحاج حمد بن الفقيه بشارة الغرباوي، من قرية منصوركتي إلى مدينة الأبيض[93]، حيث أنجب ابنه إسماعيل (1792-1863م) من زوجه ملكة الدار بنت ساتي سلمان بن إبراهيم بن عبد النبي بن الحاج حمد بن الفقيه بشارة الغرباوي، وذلك في العام 1207هـ/1792م[94]. وُلد إسماعيل الولي المؤسس بفريق الدناقلة، الذي تغير اسمه إلى فريق القبة بعد أن شيَّد السيد محمد المكي قبة على ضريح والده عام 1902م. حفظ الشيخ إسماعيل الولي القرآن الكريم وهو دون الثامنة من عمره، ثم درس

---

(91) ابن عمر عبد الله، "انتشار الطريقة التجانية في السودان. إقليم دارفور"، الطريقة التجانية، http://www.tidjania.fr/articles/251-atariqa-fi-assudan، تاريخ الاستشارة: 3 سبتمبر 2017م. وتنسب الطريقة التجانية إلى الشيخ أبى العباس أحمد بن محمد ابن المختار بن سالم التجاني (1150 هـ - 1230 هـ/ 1737- 1815م) والذي ولد في عين ماضي بالجزائر، وتلقى علومه الأولى في مسقط رأسه، وأتمها في فاس عام 1171هـ/1748م، ثم رحل إلى السودان الغربي حيث أقام خمس سنوات، وبعدها إلى تلمسان، ومنها إلى مكة والمدينة سنة 1186هـ/ 1773م. وفي المدينة المنورة التقى بالشيخ حمد بن عبد الكريم السمان، وبعدها عاد إلى فاس. ومن أهم تلاميذ الطريقة التجانية الشيخ علي حرازم بن العربي الفاسي المغربي، الذي ألف كتاب "جواهر المعاني وبلوغ الأماني" عن الطريق التجانية. وبعد تجوال بين فاس وقرية القطب سيدي أبي سمعون وتوات، طاب المقام للشيخ أحمد التجاني في فاس، حيث وافته المنية عام 1230هـ/1815م. وفي غرب إفريقيا أسهم الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي (ت. 1830م) الذي عينه الشيخ أحمد التجاني مقدماً للطريقة في مد نفوذها إلى موريتانيا والسنغال. وإلى جانب نشاطها الدعوي مارست الطريقة التجانية العمل الجهادي ضد الاستعمار الفرنسي تحت قيادة الحاج عمر الفوتي في السنغال، بهدف محاربة الاستعمار وقيام دولة إسلامية في تلك الربوع. ألف الفوتي أيضاً العديد من المؤلفات التي تعبر مراجع في أدبيات التجانية، ونذكر منها: "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم"، والذي طبع على هامش "جواهر المعاني". والناحية التنظيمية يجلس على قمة الطريقة التجانية الخليفة العام، والذي يحيط به المقدمون ومريدو الطريقة، ويقوم هؤلاء بالمهام التنسيقية، ويشرف المقدم على المريدين في المدن والأحياء والقرى، حيث يتدارسون مع أتباع الطريقة ومريديها أدبيات التجانية وتتعاونون فيما بينهم.

(92) الطيب محمد الطيب، المسيد، 335-337.

(93) والدة عبد الله جارة بنت محمد ود حبيب نسي الركابي.

(94) عون الشريف قاسم، موسوعة القبائل السودانية، ج 1، 141-142.

العلوم النقلية والعقلية على بعض علماء الركابية المقيمين في كردفان آنذاك، أمثال الشيخ عربي مكاوي والشيخ الدليل. وفي العقد الثاني من عمره بدأ تدريس القرآن والفقه في الأبيض، كما أسس أول خلوة لتدريس القرآن بجبال النوبة، ومسجداً لإقامة الصلوات الجامعة. التقى الشيخ إسماعيل الولي بالسيد محمد عثمان الميرغني (1793-1851م)[95] أثناء زيارته إلى شمال كردفان عام 1816م، ويقال إنَّ الميرغني أجازه خليفةً للطريقة الختمية في شمال كردفان، وبعد ثلاث سنوات من مقابلة الميرغني أسس الشيخ إسماعيل الولي الطريقة الإسماعيلية عام 1821م، وسلَّك فيها العديد من المريدين والأحباب.[96] وظلت الطريقة الإسماعيلية تمثل معلماً من معالم التعليم الديني والثقافة الصوفية في شمال كردفان، تخرج من مجالس علمها العديد من التلاميذ النجباء، أمثال السيد المكي الذي خلف والده في رئاسة السجادة الإسماعيلية عام 1863م؛ والشيخ علي البليل في قرية أمان الله، ريفي أبو حراز؛ والخليفة أحمد أبو زمام بالأبيض؛ والخليفة أحمد القموس بقرية أم عشيرة ريفي الأبيض؛ والخليفة عبد الرحمن الحجيري بريفي بارا؛ والخليفة الناير المنبوش بقرية روفه ريفي أم روابة؛ والخليفة آدم إسماعيل بمنطقة أبو زبد؛ والخليفة سلطان العريفي بمنطقة أبو قايدة.[97]

أما الأسرة البديرية الرابعة فهي أسرة حمد الترابي الأبيض بن الشيخ عبد الله الخمال التي حطت رحالها أولاً بجبال تقلي، ومنها إلى منطقة بحري الجزيرة، حيث تتلمذ عبد الرحمن بن حمد الترابي على الشيخ إدريس ود الأرباب بالعيلفون، وتزوج غاية بنت الحاج سلامة الضبابي، التي أنجبت له ابنيه محمد الملقب بنَّه وحمد النحلان (1619-1704م). درس الشيخ حمد النحلان على الشيخ دفع الله العركي ومحمد ود التنقاري في مويس، ثم هاجر إلى فاس في طلب العلم، وبعد عودته من فاس أقام خلوة لتدريس القرآن بقرية ود الترابي، ومن أشهر خريجها العالم الحاج ود البشير الذي درس في الأزهر، وترك جملة من المؤلفات والقصائد النبوية؛

---

(95) هو محمد عثمان الميرغني، الشهير بالختم، الذي ينتمي إلى إحدى أسر المراغنة التي نشأت بملكة المكرمة. أسس الطريقة الختمية على ثوابت خمس طرق صوفية رئيسة، هي النقشبندية، والقادرية، والجنيدية، والميرغنية، والشاذلية. وبعد ذلك طاف في البلد المجاورة لنشر أفكار وتعاليم طريقته الصوفية، فكان رحلته الثانية إلى صعيد مصر، برفقة شيخه السيد أحمد بن إدريس، ومن مصر انتقل لوحده إلى بلاد النوبة حتى وصل مدينة الدبة، ومنها سافر عبر درب الأربعين في العام 1816م إلى مدينة الأبيض بكردفان، فأرشد بها خلق كثير، وعين جملة من الخلفاء في الطريقة، ونذكر منهم: الشيخ حماد البيتي، والشيخ إسماعيل الولي، والشيخ صالح سوار الذهب. ومن الأبيض زار مناطق النيل الأزرق، وشرق السودان، والمديرية الشمالية، وأخيراً ختم رحلته الحبشة، ومنها إلى مكة المكرمة. لمزيد من التفصل انظر، عون الشريف قاسم، موسوعة القبائل والأنساب، ج 6، 2433-2437.

(96) مزيد من التفصيل انظر أطروحة محمود عبد الله إبراهيم عن تاريخ الطريقة الإسماعيلية:

Mahmoud Abdalla Ibrahim, “The History of Isma’iliyya Tariqa in the Sudan, 1792-1914”, Ph.D. Thesis, University of London: School of Oriental and African Studies, 1980.

(97) المرجع نفسه.

والعمدة النعيم ود حمد الترابي؛ والشيخ النعيم حمد ود مضوي؛ والشيخ عبد الله الترابي.[98] إلى جانب دوره التعليمي في خلوة ود الترابي، شكل الشيخ حمد النحلان البديري نموذجاً فريداً في التصوف القائم على الزهد، والتقشف، واعتزال الحياة العامة. ونوثق لذلك بقول ود ضيف الله نقلاً عن أبو كسيبه ابن عم الشيخ حمد، الذي قال:

> "سألنا خادم الشيخ حمد: يا بخيته، أين سيدك؟ قالت: سيدي من ما روح الشيخ سد خلوته ما فتحها لا أكل لا شرب، قال: جينا قلنا له: افتح أقرأ لنا، قال أبو كسيبة: قال لي: أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة، شيل ولد التنقار." وبعدما سد مدخل الخلوة بالطوب، وقال إلى أبو كسيبه وأهله: "إن شميتوا عفنة تعالوا أدفنوني، ومكث في الخلوة اثنين وثلاثين شهراً. وشال معه ثلاث سلقات قرض، وسبع تمرات، والخلوة فيها طاقة يناولوه بها الماء، وكل ليلة مُطَّالة قدر عين الجمل لفطوره. فلما خرج من الخلوة، وجدوا القرض والتمرات والمطاطيل على حالها، والركوة ملانه ماء. فجميع من شرب منها وقع مغشياً عليه، وصار ولياً من أولياء الله تعالى."[99]

وبعد هذه المجاهدة النفسية، دخل الشيخ حمد النحلان في خلوة ثانية، "فمكث فيها ثلاثين شهراً، فخرج يابساً من اللحم والدم، وجلده ملتصق على عظمه، وسموه الناس حينئذ النحلان." وبعد خروجه من هذه الخلوة الثانية قال: "فتحت باب الله، وسديت باب المخلوقين." وبناءً على ذلك، أضحى "لا يقبل الهدية، ولا له جاه ولا شفاعة عند السلطنة، ولا له حرفة من زراعة وتجارة، ولا يكتب الحُجُب كعادة الأولياء." هكذا يجسد نموذج حمد ود الترابي ضرباً آخر من ضروب التصوف التي كانت سائدة آنذاك بين قلة من الأولياء والصالحين.[100]

الصالحون في دار البديرية: الكسب الصوفي وتجلياته

إلى جانب العلم الشرعي الذي أسس له آل سوار الذهب وأولاد جابر في دار البديرية، نلحظ أن الوعي الجمعي في المنطقة كان أميل إلى المعارف الذوقية المكتسبة؛ ولذلك انتمى معظم الناس في بادئ أمرهم إلى الطريقة القادرية، التي كانت تمثل طريق مشايخهم الأوائل، وكان لها أذكارها، وأناشيدها، ورقصاتها، ومعزوفاتها

---

[98] محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 160-173؛ عون الشريف قاسم، **موسوعة القبائل السودانية**، ج 1، 374-376؛ ج 2، 952-953.

[99] المصدر نفسه، 161-162.

[100] المصدر نفسه، 161-162.

الموسيقية، بل ظن أولئك المريدون أنها الطريق الوحيد الموصل إلى الإسلام، واعتبروا كل من خالفها قد ضل سواء السبيل. وتدريجياً راجت في المنطقة كرامات الأولياء والصالحين، وزيارة الأضرحة وتشييد القباب، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والتوسل بالأحياء والأموات، والإيمان بالغيبيات، والادعاء ببلوغ درجة الكونية[101]. ويصدق في هذا قول الشيخ إدريس ود الأرباب إنَّ: "درجات الأولياء ثلاثة أقسام: كبرى، ووسطى، وصغرى؛ الصغرى أن يطيروا في الهواء؛ والوسطى إذا قالوا للشيء كن فيكون؛ والكبرى درجة القطبانية."[102] أما جمهرة المريدين، فقد اعتقدوا أن مخالفة الولي مخالفة للدين نفسه، وقد تعود عليهم وعلى ذراريهم بالويل والثبور وعجائب الأمور؛ وأن الولي بما أوتي من بركة حياً كان أو ميتاً، قادر على أن يستجيب أو يشفع لمن توسل به[103]. ونلحظ أن هذا الميل الصوفي قد أضعف الملكة النقدية، وجعل المريدين أسيروا الاعتقاد بشخصية الولي أو الشيخ لا جوهر الدعوة، وأقعدهم أيضاً عن جهد البحث والتحصيل؛ لأن طريق القوم كان طريقاً ذوقياً، يقوم على المجاهدات النفسية، والرياضات الروحية التي تشرح صدر السالك -على حد قولهم- وتكشف له سر الملكوت. وبفضل الترويج لهذه الكرامات، والمجاهدات النفسية، تسنم رهط من السالكين أسمى مقامات طريق القوم، وأضحوا منارات يهتدي بها في التوسل والدعاء. بالرغم من أن بعضاً من أولئك المتصوفة قد خالفوا الشرع الظاهر في تصرفاتهم؛ إلا أن كافة أفعالهم كانت مبررة ومفهومة لدي العامَّة التي كانت تعتقد اعتقاداً جازماً أنَّ مشايخ المتصوفة قد كُشف لهم سر الملكوت، وأفعالهم المخالفة للشرع في ظاهرها مقبولة عند الله سبحانه وتعالى.[104]

كان هذا المزاج الصوفي العام سائداً في دار البديرية وسائر بقاع السودان الشمالي والأوسط في العهد السناري. ونوثق لذلك بشذرات من سيرة الشيخ عووضة ود شكال القارح، الذي يقول عنه ود ضيف الله: "ولد بدنقلا العجوز، وأصله كان حضرياً. [...] وجمع المال الذي يجيه من الناس في بيع المغيبات، يقسمه صُرَّراً صُرَّراً، ويجدِّعُه في ديار المساكين. وقد أعطاه الله الدرجة الكونية، وهو لغة كن فيكون." ويذكر ود ضيف الله أنَّ الفقيه حجازي سبط الشيخ إدريس أخبره نقلاً عن الفقيه اسماعيل بن مصطفى، الذي قال: "كان في دنقلا رجل غنياً، وعنده امرأة عاقر قاطعة من الحيض، فإذا جاء شهر الحيض تلطخ ثديها بدم جداده. فقالت لزوجها: وديني للشيخ عووضه يديني جنى. وعندها قدحاً ملته فطير قمح وحمام ودجاج، وشيلته فرختها. قال لها: تديني فرختك وأسورتك وحجولك، قالت له: خير، فقال لهما: أدخلوا وأرقدوا فوق عنقريبي

(101) يوسف فضل حسن، **مقدمة في تاريخ الممالك**، ص: 123؛ محمد سعيد القدال، **الإسلام والسياسة في السودان، 651-1985م**، بيروت: دار الجيل، 1992م، 12-26؛ محمد المكي إبراهيم، **الفكر السوداني أصوله وتطوره**، ط 2، الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1989م، 11-20.

(102) محمد نور ضيف الله، **كتاب الطبقات**، ترجمة إدريس ود الأرباب.

(103) المصدر نفسه، 10-11.

(104) لمزيد من التفصيل عن كرامات الأولياء انظر، شرف الدين الأمين عبد السلام، **كرامات الأولياء: دراسة في سياقها الاجتماعي والثقافي** (ترجمة يسف حسن مدني ومحمد المهدي بشرى)، جامعة الخرطوم: معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، 2007م.

[...] فقال لهما: أديتكم ولد، ثم أديتكم ولد، ثم أديتكم ولد، ثم أديتكم البنت تمسك البيت." وتأكيد لهذه الكرامة قال أحد الحاضرين في المجالس: إن الشيخ "عووضة إن قال للعود اليابس ألد يلد".[105]

وعلى النسق نفسه يروي ود ضيف الله عن كرامات الشيخ حسن ولد بليل الركابي الذي "أخذ [العلم] من حبيب نسي"، فيقول: أنه "كان مجذوباً غرقاناً، فإذا قامت عليه الحالة يغطس في البحر أياماً"، فيصبح ماء البحر (النيل) يوماً دافئاً في دنقلا. وكان يمشي على الماء، وإذا قال للشيء كن فيكون، والشاهد في هذا الاعتقاد الجمعي قول ود ضيف الله: إن رجلاً مذنباً جاء إلى الشيخ عووضة ود شكال القارح، فقال له: "بدورك تسأل الله لي يغفر ذنبي، فقال شن تديني فقال أديك كذا وكذا"، فقاله له: "في الشهر الفلاني باليوم الفلاني حسن ولد بليل يموت، فإذا أدخلوه في المطمورة أعصره عليك، فالله يغفر ذنبك، ففي ذلك اليوم الرجل واقف في ساقيته، جاءت جواد مركوبة تُعلم الناس بموته [أي موت حسن ود بليل]، فركب الرجل جواده وأجراها، فوجدهم أدخلوها في المطمورة [أي القبر]، فصاح: أنا مأذون، فدخل فيها، وعصره عليه وخرج."[106] ويروى ود ضيف الله قصة أخرى عن اجتماع الفقيه محمد ولد حاج الدويحي بالشيخ حسن ولد بليل في طريق عتمور دنقلا هو راكب على بعيرٍ وحاقباً قربة ماء عليه، فلما رآه فرَّغ القربة من مائها، وقال له: "أما أحييني وأما اقتلني بالعطش"، ثم يحكى الرجل بأن الشيخ أخذ القربة منه، "فهزها فامتلأت ماء"، فشرب منها حتى وصل دنقلا.[107]

وينقل ود ضيف الله رواية أخرى عن الشيخ محمد قيلي بن الحاج حبيب بن حبيب نسي الركابي، الذي "كان من أرباب الأحوال، [...] إذا قامت عليه الحالة، ينعطن في البحر حتى يبرد ما عليه فيخرج منه." ومفاد هذه الرواية أن الشيخ عبد الرحمن أبو فاق حكى له: "أن رجلاً مشرقاوي، تلميذ لأبيه الفقيه مدني، أصابته الغزال"، فقال الفقيه مدني لهم: "ودُّوه للشيخ محمد [قيلي]، وقولوا له أعزم له، وعافيه من المرض برواج، الفقرا لا تبطل قراءتهم. قال: فسافرنا من نوري، فلما جينا في قشابي، قالوا لنا: قايمة عليه الحالة له أيام منعطن في البحر. فلما دنونا من خلواته، وجدناه انحل من البحر، طالب خلواته، فأخبرناه بكلام الفقيه [مدني] بشفا الفقير والعجلة. ففي مكانه أخذ حجاراً صغاراً، وعزم عليها، ورفعها للهوا فوقعت زرازيراً ميتة"، فشفي الرجل.[108]

تؤكد هذه المشاهد المختارة من دار البديرية أن السلوك الصوفي لبعض الأولياء والصالحين أسهم في تشكيل العقل الجمعي لأهل المنطقة، والذي ظل مشدوداً بالحديث عن مجاهدات الأولياء وكراماتهم، والتوسل بهم عند الشدائد والإحن، بعيداً عن فلسفة التصوف العلمية التي تشكل منهجاً شاملاً للحياة

---

(105) المصدر نفسه، 271-274.

(106) المصدر نفسه، 276.

(107) المصدر نفسه، 156.

(108) المصدر نفسه، 350.

الروحية والسلوك الإنساني. ولذلك كانت أحاديث العامة تدور حول مكاشفات الصوفية المتعلقة بالإدراك الصوفي لحقيقة الصفات الربانية، والعرش، والكرسي، والملائكة، والوحي، والنبوة، والروح. ويعتقدون أن هذا الكشف يحصل للسالك، نتيجة لمجاهدات النفس وخلواتها وأذكارها. وبموجب ذلك ينكشف له حجاب الحس، ويطلع على عالم الملكوت اطلاعاً لا يستطعه من كان مقيداً بقيود الحس الشرعي.[109] ولذلك صنفوا الأولياء درجات، العليا منها درجة القطبانية، أي الجمع بين الشريعة والحقيقة. ونلحظ في هذا الشأن أن أربعين تلميذاً من تلاميذ الشيخ عبد الرحمن بن جابر الركابي قد بلغوا هذه الدرجة العرفانية، ونذكر منهم الشيخ عيسى بن محمد عيسى سوار الذهب.

خاتمة

نخلص بهذا العرض إلى أنَّ الحياة في الدُفَّار ودار البديرية في العهد السناري (1504-1821م) قد شهدت درجة متقدمة في التمازج-القبلي والتواصل المعرفي؛ لأن انتشار العقيدة الإسلامية قد أسهم في خلق آليات للتمازج القبلي، تأتي في مقدمتها المصاهرات العابرة للاثنيات التي أشرنا إليها في صدر هذا البحث، مثل زواج محمد بن دهمش البديري من عالية بنت الشيخ غلام بن عايد اليماني، وزواج الشيخ محمد عيسى سوار الذهب من بنت الملك حسن ولد كشكس. وشكلت هذه المصاهرات ومثيلاتها تداخلاً فريداً بين قبائل دار البديرية، يصعب معه تمييز الحواجز الاثنية بين البديرية والركابية والفونج.

أما التواصل الديني والمعرفي فقد تجلى في الخلاوى والمساجد المنتشرة في المنطقة، والتي تجاوزت في كسب تلاميذها حدود الانتماءات القبلية؛ لأن كل من الخلوة والطريقة قد أضحتا تشكلان بناءً تراتبياً متيناً، يجلس على قمته شيخ الخلوة أو الطريقة الصوفية، الذي يحدد مقامات المنتمين إليه بمقدار ولائهم إلى المؤسسة التعليمية أو الصوفية، دون النظر في انتماءاتهم القبلية أو الجهوية. ونتيجة لذلك خلق التعليم الشرعي والانتماء الصوفي فضاءات اجتماعية أوسع من القوالب القبلية للتواصل داخل دار البديرية وخارجها.

وفي الوقت نفسه، ارتبط التواصل "الديني والمعرفي" بمصطلحين وردا في بعض التراجم التي نظمها الفقيه محمد النور بن ضيف الله، وهما: العلم والصلاح، أو الدين والصلاح. وواضح من نصوص الطبقات أنَّ العلم أو الدين يقصد به العلوم الدينية الأساسية، التي تشمل العقيدة، والفقه، والتفسير، والحديث، ويُلحق بها العلوم المساعدة أو الآلية مثل أصول الفقه، والقواعد الفقهية، واللغة العربية، والتاريخ، والتراجم. ومن أهم الكتب التي كانت متداولة في دار البديرية آنذاك، مختصر خليل بن إسحاق بن موسى بن

---

(109) عبد المجيد عابدين، **تاريخ الثقافة العربية في السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث**، ط 1، القاهرة: مطبعة الشبكشي بالأزهر، 1953م، 67-68.

شعيب (ت. 767 هـ/1374م)، الذي جمع بين دفتيه خلاصة الفقه المالكي، وكتبه بمنهج مختصر في عرض المسائل العقدية والفقهية والآداب الشرعية؛ لكن هذا الاختصار قد ألجأ العلماء إلى الشروح المساعدة، مثل: حاشية عبد الله الخراشي (ت. 1101هـ/1690م)[110] على مختصر خليل؛ وحاشية علي بن محمد الأُجْهُورِي (ت. 1066هـ/1656م)[111] في شرح عقيدة الرسالة، وشرح عبد الباقي الزرقاني (ت. 1122هـ/1710م)[112] على مختصر خليل. ويشير صاحب الطبقات لمثل هذه الشروح في ترجمته عن الشيخ محمد ود دوليب الركابي، الذي يصفه بأنه كان "مشتغلاً بتدريس الفقه، وتحصيل كتبه، ومطالعتها، وجمع كتباً كثيرة، كشرح الأُجْهُورِي والخراشي، وغيرهما." وتأتي في المرتبة الثانية بعد مختصر خليل، رسالة أبي زيد القيرواني، للشيخ أبي زيد محمد عبد الله بن أبي القيرواني (ت. 386هـ/996م)، والتي تحوي بين دفتيها أربع آلاف مسألة دينية، تتعلق بالمسائل العقدية، وكذلك الجوانب الفقهية المرتبطة بالطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والنكاح، والبيوع، والوصايا، والشفعة، الهبة، والصدقة، والحبس، والرهن، والعارية، والوديعة، وأحكام الدماء، والحدود، والأقضية، والشهادات، الأطعمة، فضلاً عن بعض الآداب الشرعية والقضايا التوحيدية. وفي تأليف هذه الرسالة عمد الشيخ القيرواني إلى الوضوح في الأسلوب، والسلاسة في العرض، والاختصار في المضمون دون إخلال بالمحتوى، وبذلك رام فيها تبصرة المبتدئين في دراسة الفقه المالكي. وإلى جانب هذه الكتب الفقهية وشروحاتها، كان علماء دار البديرية، كنظرائهم في السودان النيلي، يدرسون الآجُرُّومِيَّة في علم النحو، والتي ألفها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن داود الصنهاجي، الشهير بابن آجروم (ت. 723هـ/1323م)؛ وكذلك العقيدة السنوسية الكبرى والوسطى والصغرى (أو أم البراهين) في علم التوحيد، لمؤلفها الإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت. 895هـ). وإلى جانب هذه المصنفات، كان خريجو خلاوى البديرية يهتمون بالنسخ والتأليف، ونذكر منهم الشيخ المكي النحو الرباطابي، أحد تلاميذ محمد عيسى سوار الذهب، الذي صنَّف شروحاً جليلة، منها: شرحه الكبير على السنوسية (أم البراهين) في أربعين كراساً؛

(110) هو الشيخ محمد بن عبد الله بن على الخراشي، ولد بلدة «أبو خراش» بمحافظة البحيرة عام 1010هـ/ 1601م. كان شيخاً للمالكية، عرف بالورع والتقى والعلم والصلاح. تلقَّى العلمَ على يد نُخبةٍ من العلماء والأعلام، ونذكر منهم والدُه الشيخ عبد الله بن على الخراشي، والشيخ اللقَّاني، والأجهوري. ثم واصل تعليمه في الأزهر، حيث درس العلوم النقلية والعقلية، والسيرة والتاريخ. وبعد ذلك تفرغ للتدريس، ومن تلاميذه الشيخ القليني، والشيخ الفيومي، ومن مؤلفات: "الشرح الكبير على متن خليل"، ثمانية مجلدات، والشرح الصغير لمختصر خليل، أربعة مجلدات، و"الفرائد السنية في حل ألفاظ السنوسية في التوحيد."

(111) هو الشيخ علي بن محمد الأجهوري (ت. 1066هـ/1656م)، شيخ المالكية في عصره بالقاهرة. كان محدثاً فقيهاً، جمع بين العلم والعمل، وبرع في الفنون المنطقة والبلاغة. درس، وأفتى، وصنف، وألف. شرح مختصر خليل في ثلاثة شروح: الشرح الكبير في اثني عشر مجلداً، والشرح الوسيط في خمسة مجلدات، والشرح الصغير في مجلدين، وكما له شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني في مجلدات، وله حاشية على شرح التتائي الكبير على الرسالة. ومن تلاميذه المشهورين: الشيخ الشمس البابلي، والإمام أبي سالم العياشي صاحب الرحلة العياشية، والإمام الخرشي شارح المختصر، والإمام عبد الباقي الزرقاني.

(112) هو عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني (ت. 1122هـ/1710م)، فقيه مالكي وعالم محقق. ومن مصنفاته: "شرح على مختصرة خليل، و"شرح على المقدمة العزية للجماعة الأزهري".

وشرحه الكبير على الآجُرُّومِيَّة في ثلاثين كراساً والصغير في عشرة كراسات.[113] ويشاركه في هذا الشأن الشيخ عبد الرحمن بن حمد الأغبش الذي صنف شرحاً لمتن الجزرية في تجويد القرآن، وشرحاً آخر لمتن الخرازي في الرسم القرآني.[114]

أما طريقة التدريس فكانت تقوم على الاستظهار والحفظ الذي يُعدُّ من الشروط الأساسية في التعليم آنذاك، بمعنى أن الدارس يجب أن يحفظ الآيات القرآنية (أي كتاب الله)، والأحاديث النبوية، وبعض المتون الأخرى والشروحات. ونذكر في هذا المضمار الشيخ نابري بن الفقيه عبد الهادي بن الشيخ محمد ولد دوليب، الذي يقول عنه صاحب الطبقات "حفظ الكتاب على الفقيه دفع الله [محمد الكاهلي]، وقرأ خليل على عمه الفقيه صغيرون في ضنقلا، وعلى الفقيه ضيف الله، وسلك الطريق على الشيخ محمد ولد الطريفي. وطال عمره واشتهر ذكره، وله خمسة وتسعون سنة، مشتغلاً بالذكر والعبادة والتجريد لذلك. ومدة عمره ما اشتغل ببيع ولا تجارة، بل شغلته في الذكر والعبادة. دُفن بالحلفاية وقبره ظاهر يزار."[115] إلا أن الناظر بإمعان في مخرجات الحفظ والاستظهار يجدها بائسةً؛ بدليل أن معظم الدارسين في خلاوى القرآن كانوا مقلدين على المستوى الفقهي، وتابعين على المستوى الصوفي، دون أن يبرز فيهم مفكراً، يهتم بنقد النصوص الدينية وتقيمها وتقويمها، ثم طرح طروحات جديدة، تشكل إضافة نوعية للعلوم النقلية والعقلية. ولذلك انتقد الدكتور عبد المجيد عابدين النمط التدريسي القائم على الحفظ والاستظهار، متعللاً بأنه يضعف ملكات التصرف في العلم، ويقعد الدارس عن فهم المعاني المقاصدية الكامنة في النصوص ولا يكسبه مهارات اجتهادية في استنباط الأحكام الشرعية.[116] ونتيجة لذلك وصف يوسف فضل الإنتاج العلمي القائم على الشروحات والحواشي آنذاك بأنه انتاج ضعيفٌ باهت، "يغلب عليه التقليد، ولا يعبر عن نشاط خلَّاقٍ، أو فكر أصيلٍ."[117]

وثمرة ذلك، أنَّ التمازج القبلي والتواصل الديني-المعرفي والوسائط الناقلة لهما في دار البديرية قد شكلت المنصات التأسيسية التي انطلق منها العلماء والصالحون والدارسون؛ ليسهموا في نظم شبكة من العلاقات الاجتماعية العابرة للفواصل القبلية، وينشروا الوعي المعرفي القائم على تعاليم المذهب المالكي في الفقه، والمذهب الأشعري في العقائد والتوحيد. لكن ذلك الواقع القائمة على ثنائية المالكية والأشعرية قد شهد بعض التحولات المعرفية في الحقب التاريخية اللاحقة، ابتداءً بالعهد التركي، ومرور بالمهدية، وانتهاء بالحكم الثنائي والحكومات الوطنية المتعاقبة بعده.

---

(113) محمد النور بن ضيف الله، **كتاب الطبقات**، 103-104.

(114) المصدر نفسه، 103-104.

(115) المصدر نفسه، 367.

(116) عبد المجيد عابدين، **تاريخ الثقافة العربية في السودان**، 90.

(117) يوسف فضل حسن، **دراسات في تاريخ السودان**، ج1، الخرطوم: جامعة الخرطوم، دار التأليف والترجمة والنشر، 1975م، 117.